مغامرات مجنون العرب

Adventures of Crazy Arabs

(٢)

ليلة القبض على مجنون العرب

مقامات عصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

١

القبض على مجنون العرب ..

مقدمة

قطع أمير الشعراء أحمد «بك» شوقي إجازته التي كان يقضيها في أحد منتجعات الدار الآخرة.. نهض، فجأة، من مكانه، كمن لدغه برغوث، مع أنه كان يبدو مرتاح البال، وهو جالس على الأريكة السندسية المفضلة لديه.. مع نهوضه المفاجئ، اكتسى وجهه بالغضب، دون أن يهتم بنظرات الدهشة التي انبثقت من عيون الحوريات المستلقيات حوله بملابسهن الشفافة، بادرته إحداهن قائلة وهي تتنهد: هل أحسست يا سيدي بالملل؟ هل ضايقتك واحدة منا؟.. كنت أظن أنك تنعم بجلستك الهادئة بيننا، خاصة أننا كلنا نسعى لإسعادك.

حاول شوقي «بك» أن يتخفف قليلاً من غضبه. قال للحورية المتنهدة: إن الأمر لا يتعلق بك ولا بسواك، فكلكن لطيفات وظريفات، لهذا سأعود إليكن، ولكن بعد أن أنفذ ما استقر عليه تفكيري.. بعد ثوان معدودات، شوهد أمير الشعراء، وهو يخرج من أحد الأبواب السرية للمنتجع، ربما لكي يتجنب فضول الصحفيين، أو يهرب من كاميرات القنوات الفضائية التي تصوب نحو المشاهير. تزاحمت التساؤلات على شفاه الحوريات. إحداهن تساءلت: ما الذي أغضب «أمير الشعراء» العرب؟.. أكدت حورية أخرى: هذه أول مرة أرى فيها وجهه قد اكتسى بالغضب. أضافت

حورية ثالثة: نحن لم نقصر في ملاطفته منذ أن وفد إلى هذه الدار الآخرة يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية. ردت عليها حورية بجوارها وهي تتمطى: ربما تكون طبيعته البشرية قد عادت إليه، فأصبح يعرف الغضب وسواه من الانفعالات التي تضر صاحبها قبل غيره. قالت الحورية التي كانت تتنهد أمام شوقي «بك»: أنا أعتقد أنه قد اشتاق إلى وطنه مصر، ويريد أن يزوره ولو بمجرد الروح.. لقد سمعته أكثر من مرة، يتمتم وهو شبه نائم:

وطني لو شُغلتُ بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

اعتدلت الحورية ثم تثنت بدلال، وهي تقول: على أي حال، فإننا سنعرف السر عندما يعود إلى متجعنا هذا، كما وعدني، وهو صادق الوعد.

ما لم تعرفه الحوريات أن أمير الشعراء قد اندفع كالمدفع الرشاش، قاصداً مقر «الانتربول الفضائي» حيث التقى مع كبار الضباط العاملين فيه، مطالباً إياهم بأن يتعاونوا مع ضباط «الإنتربول» الذين يعملون على سطح الكرة الأرضية، لكي يحققوا له ما يريد... هدف أمير الشعراء واضح ومحدد.. أن يتم إلقاء القبض على مجنون العرب بأية وسيلة. هذا الهدف يتطلب بالطبع خططاً سرية بارعة، حتى لا يتمكن المجنون من الإفلات، بفضل ما لديه من حيل وأسلحة عجيبة، من بينها «الصاروخ العابر للزمان» و«طاقية الإخفاء» و«بساط الريح» و«القمقم النحاسي المسحور».

عقد أحد الضباط حاجبيه على جبينه اللجيني الذي تتغنى به فيروز، ثم قال بأدب شديد: لماذا تتوجه إلينا بهذا الطلب يا سيدي الأمير؟.. أنا- شخصياً- أعرف أن مجنون العرب إنسان مسالم، وهو لا يستخدم ما لديه من حيل وأسلحة إلا لكي يكتشف طباع الناس وأهواءهم خلال سنوات الحياة المتاحة لكل منهم على سطح الأرض. اصطبغ وجه أمير الشعراء بالأزرق والأحمر، وهو يقول: يا حضرة الضابط الموقر.. يبدو أنك طيب جداً، فهذا المجنون ليس مسالماً كما تظن، وقد جئت إلى هنا لكي أطالب بالقبض عليه، لكي يقر بما ارتكبه ضدي. وعلى العموم فإني لا أريد إيذاءه.. كل ما أريد أن أقوله له هو «للصبر حدود». أريد أن أنبهه إلى بعض ما يستوجب التنبيه، وبعدها

يمكنني أن أقول «لكل حادثة حديث».

اقترب من أمير الشعراء ضابط آخر متجهم الوجه، ويبدو على ملامحه أنه من أقارب «شيلوك» المرابي اليهودي الذي فضحه وليم شكسبير منذ عدة قرون. قال الضابط «الشيلوكي» القلب: إن كل ما لدينا من تقارير، يؤكد أن مجنون العرب إنسان شرير، وهو واحد ممن يعادون «السامية» بدليل أنه يكره وجبة «الكوشير» ويفضل عليها «الفول» و«الطعمية» ونظراً لأني متعمق في دراسة الخلافات العربية – العربية وسبل تفكيكها لا تأجيجها، فإني لن أرحم هذا المجنون الشرير، ولن أتركه يفلت من العقاب، لكي يعرف أن لدينا هنا ما هو أقسى وأعنف من «جوانتانامو» و«أبو غريب» وسواهما. كل ما عليك يا أمير شعراء العرب أن تثق بي ثقة عمياء، فأنا المؤهل وحدي للقبض على مجنون العرب.

كما هي عادته، كان المجنون يتجول ببساط الريح في فضاء الكرة الأرضية، محاولاً ألا ينظر إلى الأرض ذاتها حتى يبعد عينيه عن رؤية شلالات الدماء البشرية، لكنه فوجيء بأن مجموعة من الأطباق الطائرة تحيط به من كل جانب، ورأى أحدها يكاد يلتصق ببساط الريح، وسمع صوتاً محملاً بالشر، تتدحرج منه كلمات متعثرة بلغة عربية ركيكة الأداء: إحنا بنريد تعطينا من وقتك خمس دقايق يا سيد مجنون، إنزل على الأرض حالاً وإياك تهرب. قال المجنون لنفسه إن «الكثرة تغلب الشجاعة» فأخذ يهبط اضطرارياً، وبمجرد أن هبط، حاصره ملثمون كثيرون بعد أن خرجوا من أطباقهم الطائرة، وحملوه معهم، حيث سلموه، بعد أن ضربوه،للضابط «الشيلوكي» القلب،وتم وضع المجنون داخل قفص شائك، تسيل على أسلاكه قطرات دم، وسمع «أمير الشعراء العرب» من يقول له: الحين.. تقدر تسوي خلافاتك العربية- العربية مع مجنون العرب!

أحس شوقي «بك» بطعم الندم، لا في حلقه،بل في روحه. لهذا لم يتوجه بأية كلمة شكر للضابط «الشيلوكي» القلب، وإنما اقترب – بهدوء – من الضابط الذي كان يعقد حاجبيه على جبينه اللجيني ورجاه أن يخرج المجنون من القفص، حتى يستطيع أن يناقشه بشأن نقاط الخلاف التي لم يكن المجنون يعرف عنها شيئاً.. حقق الضابط رجاء شوقي «بك» الذي دخل على الفور في صلب موضوع الخلاف.

- سامحني يا مجنون، فأنا لم أقصد أبداً أن أؤذيك، لكني سمعت أنك تنوي الإساءة لي!

★ هل يُعقل أن أسيء إلى شاعر عبقري، أحببته وما زلت أحبه من كل قلبي؟

- هذا ما سمعته. لهذا أرجوك أن تجيب بصدق. هل صحيح أنك تنوي إصدار كتاب جديد، تروي فيه أسرار مغامراتك وشطحاتك الغريبة؟

★ هذا صحيح.

- وما عنوان هذا الكتاب؟

★ أنوي أن أسميه «مجنون العرب مع الحمار والخروف والنعامة».

- لكني سمعت عن عنوان آخر غير هذا!

★ معك حق يا شوقي «بك».. لقد كنت أنوي - في البداية - أن أسمي الكتاب "مجنون العرب مع أمير الشعراء والحمار والخروف» ثم أدركت - بعد أن فكرت - أن هذا العنوان غير لائق، لأنه قد يوحي بالمساواة بين الإنسان والحيوان، وبين أمير الشعراء والحمار والخروف، ولهذا عدلت عن هذا العنوان، واكتفيت في العنوان الجديد بالحمار والخروف وأضفت إليهما النعامة.

- إني أحب صراحتك يا مجنون، لكني أريد أن أقترح عليك عناناً جديداً، ينطبق على ما أنت فيه الآن.

★ ما هو هذا العنوان؟

- «ليلة القبض على مجنون العرب».. أعتقد أن هذا عنوان مناسب.

★ وهو كذلك يا شوقي «بك».

- الآن قل لي.. كيف أساعدك لتخرج من هذه الورطة التي وضعتُك فيها منذ أن اكتسى وجهي بالغضب؟

★ لا تقلق أيها الأمير.. يا صاحب القلب الكبير.. عندي من أسلحتي ما يتكفل بعودتي آمناً إلى حيث كنت!

فجأة لم يعد أحد يرى المجنون.. في لمح البصر، وضع على رأسه «طاقية الإخفاء»

وانطلق في رحلة العودة إلى الأرض، بينما أصيب الضابط «الشيلوكي» القلب بما يشبه«الصدمة والترويع» وهو الذي كان يحلم بأن يصبهما على رأس المجنون، أما أمير الشعراء، فإنه تمهل قليلاً، ربما ليتأكد أن المجنون قد اختفى تماماً عن الأنظار، وبعد أن اطمأن قلبه، قرر العودة من جديد إلى نفس المنتجع الذي كان قد غادره.

استقبلت الحوريات شوقي «بك» وهن فرحات مبتهجات، أما هو فإنه لم يكن مغتبطاً تماماً، بعد أن لاحظ ما لم يكن قد تنبه إليه من قبل، فقد رأى عدة حوريات، كل منهن ترتدي فستاناً من الفساتين التي كانت ترتديها «شهر زاد» على امتداد «ألف ليلة وليلة» بينما رأى حوريات غيرهن، ترتدي كل منهن فستاناً من فساتين عارضات الأزياء الأوربيات في باريس ولندن وميلانو، كما رأى أخريات محجبات ومنقبات، ورأى غيرهن قانعات بارتداء قطع حريرية أصغر من «ورقة التوت» التي كانت «حواء» تستر بها ما أرادت أن تستره. تساءل أمير الشعراء عن سر هذه الخلطة الغريبة، وعما إذا كان التنوع يدل على خصوبة الحياة وثرائها، أم أنه يؤكد أن الفوضى قد وصلت إلى أقصى مداها، حتى عند الحوريات؟!

★★★

«المجنون ليس أنا..» هذا ما قلته من قبل، وأحب أن أؤكده الآن بكل وضوح، حتى لا يظن العقلاء بي ما قد يظنون، فيتجنبني بعضهم أو يهرب من طريقي غيرهم. وفيما يتعلق بحكاية القبض على مجنون العرب، ونجاحه في الإفلات والهرب فإنه – شخصياً – هو الذي رواها لي، بحكم الصداقة العميقة بيننا.

طبعاً تترتب على الصداقة أعباء ومسؤوليات، يعرفها العاقل والمجنون على حد سواء، ومن هذا المنطلق طلب مني صديقي مجنون العرب أن أسجل ما يرويه لي من مغامراته ورحلاته، لأنه- كما يزعم- لا يجد الوقت الكافي لتسجيلها بنفسه، وقد وافقتُ على هذا الطلب، مشترطاً عليه أن يتحمل هو وحده المسؤولية الكاملة عما ورد في هذه المغامرات والرحلات، تماماً كما حدث في الكتاب الأول «مجنون العرب – بين رعد الغضب وليالي الطرب» والحقيقة أن المجنون لم يعترض على هذا الشرط، ثم قام على الفور بإهدائي مجموعة جميلة من الأقلام والأوراق، لكي أتحمس في تدوين مغامراته ورحلاته دون تلكؤ أو تباطؤ، فضلاً عن أنه أهداني بعض تذكاراته الشخصية

التي يرى أنها نفيسة وذات قيمة تاريخية، ومن بين تلك التذكارات، البنطلون «الجينز» الذي ارتجاه امرؤ القيس عندما قرر التخلص من ماضيه العربي، لكي يتحول إلى إنسان متمدين عصري، فضلاً عن «برذعة» حمار كان قد حاول التخلص من حموريته العريقة،وأن يتمرد على الواقع الذي عاش في إطاره.

يعرف الذين قرأوا الكتاب الأول أن مجنون العرب قد التقى مع كثيرين من الشعراء العرب الذين غابوا عن الدنيا منذ قرون، ومن بين هؤلاء امرؤ القيس وعنترة بن شداد وزهير بن أبي سلمى وعمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى قيس بن الملوح. ويعرف الذين قرأوا الكتاب الأول أيضاً أن المجنون – كما يزعم – قد واجه نيرون بشجاعة، كما تصدى لهولاكو ببراعة ووقف في وجه الإمبراطور طائش بن راعش الذي يقتلع الخضرة والحشائش،ويرتكب الفواحش. أما من ناحيتي فإني أعلنت وقتها براءتي من الآراء والمواقف المتهورة،التي أبداها هذا المجنون تجاه الملوك والأباطرة والرؤساء، وأكدت – بشكل واضح – أنه يتحمل، وحده، عاقبة ما قد تصل إليه الأمور مع أي ملك أو إمبراطور أو رئيس، كما أنني أكدت، دون أن أتعرض لأية ضغوط خارجية أو داخلية أنني أحب كل الملوك والأباطرة والرؤساء، وأرى أنهم جميعاً من المصلحين الذين لا يبغون في الأرض فساداً، وكما هو شأن كل العقلاء، وبالذات أولئك الذين يسمون أنفسهم «مثقفين» فإني دائماً أبايع كل حاكم، وأرجو له طيب الإقامة على كرسي الحكم، أما إذا انقلب – لسبب أو لآخر – من على الكرسي، فإني أبايع من يجيء بعده دون أي تأخير،وشعاري في هذا هو المثل الشعبي المصري «اللي يتجوز أمي.. أقول له يا عمي»!

يبدو لي أن المسألة أسهل في هذا الكتاب الثاني، وذلك لأن المجنون لا يواجه فيه نيرون أو هولاكو أو غيرهما، وإنما يلتقي مع حمار، ويتعاطف مع خروف، أو يتعقب ديكاً من الديوك، ويحاول مساعدة نعامة كانت بائسة ويائسة من إصلاح واقعها المتردي. ولهذا السبب فإني مطمئن – في هذا الكتاب الثاني – أني لن أتعرض لشنق أو لإطلاق الرصاص أو لسيارة مفخخة أو للاعتقال أو الخطف، فكل الذين يلتقي معهم المجنون أو معظمهم، هم من الحيوانات، وليسوا من بني آدم الذين قال عنهم – فيما مضى – أبو العلاء المعري:

أفضل من أفضلهم صخرة

لا تظلم الناس ولا تكذب

قد يقول لي أحد العقلاء، قاصداً أن ينبهني أو أن يخيفني: ولكن هناك حيوانات مفترسة، وهنا أقول له وأنا شبه مطمئن إن المجنون لم يلتق في معظم مغامراته ورحلاته الجديدة إلا مع حيوانات أليفة، طيبة ومطيعة، فهو لم يلتق مع الأسد أو النمر أو الفهد أو وحيد القرن. ولكن لابد من الاعتراف بأني شخصياً قد تحدثت عن هؤلاء وسواهم مع المجنون خلال عدة جلسات سرية، حيث اندمجنا في قراءة أو إعادة قراءة مجموعة من الكتب التي تجرأ أصحابها ووصفوا فيها صفات الأسد والنمر والفهد ووحيد القرن، ومن هؤلاء الذين تجرأوا بل تهوروا «أيسوب» الإغريقي و«لافونتين» الرنسي ومن عندنا «أمير الشعراء» بلحمه وشحمه، وكذلك «الجاحظ» و«الدميري» من الأدباء العرب القدامى.

ولابد هنا أيضاً أن أنبه العقلاء إلى أن كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للأستاذ العلامة والقدوة الفهامة الشيخ كمال الدين الدميري، هو كتاب يجمع بين العقل والجنون، وبين الحكمة والخرافة، على سبيل المثال، فإن الدميري أراد أن يعظ الناس، ويشرح لهم أضرار الخمر، فروى لهم حكاية خرافية بكل معنى الكلمة، أثناء حديثه عن الطاووس، حيث قال: «حُكي أن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس فذبح عليها طاووساً فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة، وذلك أنه أول ما يشربها وتدب في أعضائه يزهو لونه ويحس كما يحس الطاووس، فإذا جاءت مبادئ السكر لعب وصفق ورقص كما يفعل القرد، فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأسدية فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه، ثم يتقعص كما يتقعص الخنزير ويطلب النوم وتنحل عُرا قوته..».

هذا مثال من مئات الأمثلة التي تدل على ما في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» من خرافة، وهناك بالطبع مئات الأمثلة الأخرى التي تدل على ما في نفس هذا الكتاب من علم وحكمة، ومن هنا فإني أرى أن كتاب الدميري مفيد حقاً لكل من المجانين والعقلاء على حد سواء، شأنه في هذا شأن كثير من الكتب العربية القديمة التي تمتزج فيها الخرافة بالعلم!

أعود الآن إلى هذا الكتاب الذي اقترح أمير الشعراء أحمد «بك» شوقي أن يكون عنوانه «ليلة القبض على مجنون العرب» حيث تبدأ أولى المغامرات بسهرة مطولة جمعت – بالمصادفة – كلا من المجنون وأمير الشعراء في ملهى «الليدو» بباريس، وكان المجنون قد احتال، فسمى نفسه «رمسيس» حتى يهرب من ملاحقة الجواسيس، نظراً لأن اسمه العربي قد يوقعه في مآزق أو مشكلات، أقلها هو اتهامه بأنه «إرهابي» أو «أن هناك صلات مشبوهة تربطه بالقاعدة».. روى المجنون لشوقي «بك» حكاية قطة أصبحت في ورطة، بعد أن جاءها في المنام أن الفأر قد تعهد بأخذ الثأر، والحقيقة أن ما أحست به القطة من ورطة، هو نفس ما يشعر به الطغاة الأقوياء حين يرون أن الأمور قد أفلتت من أيديهم وعلينا أن نتذكر هنا منظر «شاوشيسكو» ديكتاتور رومانيا بعد أن ظل يحاول أن يهرب من مصيره المحتوم دون جدوى!

بعد السهرة المطولة مع أمير الشعراء، أخذ المجنون يتسكع في الشوارع والحارات، إلى أن التقى مع حمار، يحاول التمرد على ما في الحياة من انحطاط وانحدار، وقد اعترف هذا الحمار للصحافة، بأنه لا يحب النظافة، وصدر قرار بقطع ذيله، بعد اتهامه بفضح الأسرار، فأخذ يبحث عن وسيلة للفرار، بعد أن توعده السيف البتار، وبعد نجاته من عدة كمائن تحايل كي يتحول من حمار إلى مواطن لكنه ما لبث أن واجه الناس مؤكداً أن معظمهم وسواس خناس، وبعد هذه المواجهة كان لابد له أن يقرر العودة للأصل حتى يلتئم الشمل مع الأهل.

بعد عودة الحمار إلى حظيرته، التقى المجنون مع نعامة، ضلت خطاها سكة السلامة، وكان المجنون قد عرف من «الدميري» حكاية عجيبة تروي أن النعامة قد ذهبت لكي تطلب لها قرنين، حتى يتسنى لها أن تدافع بهما عن نفسها إذا اقتضت الضرورة، لكن الناس الظالمين بدلاً من أن يعطوها القرنين قطعوا لها الأذنين، ومن يومها لم تعد تسمع حتى أعلى الأصوات!

تحمس المجنون بشهامة لأن يساعد النعامة، وهذا ما تحقق بفضل صديقه «المارد» العملاق الذي يقدم له خدمات جليلة، حيث يقوم باستدعائه من القمقم النحاسي المسحور، وعلى الرغم من أن المارد قد ساعد النعامة في استرداد ما كان لها من أذنين، إلا أنه «رفض الخوض في أي حديث.. يتعلق بشهرة النعامة في الجري الحثيث.. لأن ما

كانت تتحلى به من عنفوان.. قد أصبح في خبر كان.. أما الآن فإنها لا تحصل إلا على درجة صفر.. في كل مسابقات هذا العصر..».

تقديراً لما أهداني المجنون إياه من أقلام وأوراق لابد أن أستطرد فأشير إلى أنه قد التقى مع أحد الديوك، وقد أكد هذا الديك أن الدجاج، أصبح يبيض الآن بدون مزاج، ونظراً لأن هذا الديك كان من الماكرين فإنه حَبَكَ تمثيلية مكشوفة، محاولاً أن يعيد بها شعبيته المفقودة بين جموع الدجاج، وملخص هذه التمثيلية أن يقفز هذا الديك من أعلى سور. محتجاً على إنفلونزا الطيور!

على امتداد أربع حلقات أو «مقامات» يستطيع العقلاء أن يتعرفوا على شخصية «خروف» يحاول أن يتمرد على الواقع بل أن يتجاوزه لكي يهرب من المصير المحتوم، فقد أكد هذا الخروف للمجنون أنه «ضحية» وأنه سيحاول إقناع مجلس الأمن بأن ينظر في قضيته التي تتعلق بقيام المسلمين بذبح أقاربه وبني جنسه باستمرار وخصوصاً في «عيد الأضحى» وقد تأكد الخروف أن أكبر المحرضين على ذبح أقاربه وبني جنسه هو الشاعر القطري – العربي – المسلم محمد بن خليفة العطية الذي أرسل للمجنون رسالة «موبيل» يطالبه فيها بعدم التعاطف مع القضية الخروفية، وهذا هو النص الحرفي للرسالة:

«أيها المجنون ما جدوى القضية
بعد أن تقضي على الكبش المنية
إنما كبشك قربان «طليق»
فاشحذ السكين وانحره هدية
ودع اللغو مع الكبش فإنَّ
اللغو لا يمنع أقدار الضحية»

لم يتجاوب المجنون مع رسالة صديقه الشاعر محمد بن خليفة العطية، وأخيراً ارتاح الخروف من التفكير بعد أن قرر التحول إلى خنزير، لكن أغرب ما جرى هو أن هذا الخروف قد وقع في مأزق جديد بعد أن تحول إلى خنزير، فقد رآه أحد جيران المجنون،

وهو مستر «سيمون» – الهندي المسيحي، وحاول أن يربطه بحبل متين.. بعد أن تصورُ هذا الجار أنه أمام خنزير سمين.. وأنه من الممكن تحويله إلى وليمة شهية، يدعو لها أصدقاءه الذين يدينون بالمسيحية. كان لابد من البحث عن حيلة جديدة، وهكذا استدعى المجنون صديقه «المارد» وأمره أن يحول الخروف إلى بقرة، مستعيناً في هذا بطقوس كتاب «مسخ الكائنات» للشاعر الروماني أوفيد، والذي ترجمه إلى لغتنا العربية ترجمة رائعة الكاتب الفنان الدكتور ثروت عكاشة، وهكذا تجلى الخروف في هيئة بقرة.. ولم يعد أحد يقتفي أثره، لا من المسلمين ولا من المسيحيين، خاصة بعد أن حمله «المارد» وأوصله إلى الهند وقد أصبح الخروف – بهيئته البقرية الجديدة – معبوداً للهندوس الذين يعبدون الأبقار.. المشكلة الجديدة، وهي مشكلة داخلية هذه المرة وليست خارجية، أن الخروف تحول في الهند إلى طاغية مستبد، فاغتاظ المجنون وأرسل إليه مهدداً بإلقائه في أبشع هاوية لكي يلقى نفس المصير الذي يلقاه الطغاة من البشر.

بعيداً عن الحمار والنعامة والديك والخروف، التقى المجنون كذلك مع إنسان ليس من لحم ودم، وهو الذي يسمونه «الروبوت» أو «الإنسان الآلي» أما مكان اللقاء فهو سطح كوكب المريخ الذي وصل إليه المجنون بصحبة صديقه المارد المطيع.. كان المجنون يتصور أن كوكب المريخ، لابد أن يكون مملوءاً بالبطيخ، طالما أن لونه أحمر، أو أن سكانه الذين انقرضوا هم من الشيوعيين الذين يرفعون الأعلام الحمراء، لكن أغرب ما حدث يتمثل في أن «الروبوت» باح للمجنون بما ينوي أن يفعله حين يصبح أكثر ذكاء وقدرة على الاستقلال في التفكير وفي الحركة.. أكد «الروبوت» أنه سيتمرد على أوامر الذين أرسلوه من الأرض إلى المريخ، لأنه عرف نواياهم الخبيثة، فهم يريدون استغلال العلم في الشر، وليس في الخير الذي ينفع الناس ويجعل حياتهم أكثر جمالاً، ونظراً لخطورة الكلام الذي باح به «الروبوت» لابد لي أن أنقل النص الحرفي لكلامه، حتى يتحمل وحده المسؤولية، ومما قاله «الروبوت» بالنص: «.. إن المتجبرين من الآدميين.. يريدون أن يبنوا فوق المريخ زنازين.. لأن زنازين الأرض لم تعد كافية.. رغم أن قتل السجناء يحدث في كل ثانية».

عاد المجنون من المريخ، ليلتقي أو يتعرف على نساء مختلفات، منهن من تحولت أجسادهن إلى سلع تُشترى أو تؤجر لطالبي المتعة من الرجال وقد رق قلب المجنون

وهو يقول: «... من الليدو إلى كازينو بديعة.. يظل أمثال عمر بن أبي ربيعة.. يتفحصون جمال الزهرات.. ويتذوقون نبيذ الرغبات.. بينما ترقص الزهرات بسيقانهن العارية.. في ليالي المدن القريبة والنائية.. ولا مكان لمن تظل باكية.. فعلى كل زهرة أن تبدو زاهية. وتتظاهر بأن روحها من الهم خالية. «ومن ناحية أخرى، فإن المجنون الذي يعرف قيمة الحب، تشاجر مع «كارمن» وأكد لها أن عاشقها ليس بخائن.. وتجول المجنون مبتعداً عن «كارمن» الغجرية الأسبانية، ليتعرف على مصير «ذكرى» المطربة التونسية، ثم رأى بعينيه أفعى غادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. لكنها تزعم أنها طاهرة.. كما رأى «ليلى العامرية» وهي تتأرجح بينما ظل قيس بن الملوح يترنح، وهو يقول:

يبوح القلب دوماً باشتياقي
لليلاي المريضة في العراقِ
أرى جسداً تفتته المآسي
على أرض تلن من الشقاقِ
وتحلم بالنهار بيت فيها
شموساً للتناغم والتلاقي
ولكن كيف يشفيها طبيب
يدس السم في جسد الوفاقِ؟

قلت من قبل إن المجنون – في هذا الكتاب الثاني – يلتقي مع حيوانات، حيث يتعاطف مع حمار وخروف، لكن هذا لا يعني أنه لم يشاهد نماذج من الرجال الذين يُفترض أنهم من الآدميين، لكن هؤلاء ليسوا كثيرين على أي حال ومن هؤلاء «السيد المهاب» الذي قال لأحد أعوانه:

نادِ المثقفَ واعطه بقشيشا
وإذا تلكأ.. وفه التلطيشا

ومن هؤلاء أيضاً «المهووس الأحمق» الذي أوقع نفسه في مأزق. و«مهبوش بن مرعوش» الذي يتصور أنه أقوى من كل الوحوش.. ونظراً لإدراك المجنون لكل وسائل

الخداع التي يلجأ إليها الطغاة، فإنه قال لي بالحرف الواحد إن إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب.. لا يعني أنها بلا أنياب، وقال المجنون لي إنه سمع الذئب الأكبر يقول: «.. كل منا سيرتدي صوف خروف.. أما الفعل فسيظل كما هو مألوف.. وبدلاً من أن نوصف بأننا متوحشون أجانب.. ويأتينا اللوم من كل جانب.. فإننا سنصبح قوة متعددة للنهش.. وهذا ما سيطمئن قلب كل جحش».. وعلى الرغم من أن «مجنون العرب» ظل حزيناً أو شارداً أو متململاً أو مغتاظاً وهو يروي لي ما ضايقه، فإنه أكد تمسكه بالأمل.. فمن يدري؟.. ربما استطاع «الإنسان الآلي» أو «الروبوت» أن يُسخر العلم لخدمة الناس، بدلاً من القضاء على الضعفاء منهم.. من خلال التمسك بالأمل، اختتم المجنون ما رواه وهو يؤكد أن «الليل تدحرج في الغابة.. والنور يعانق أحبابه».

مرة أخرى يُؤكد أن «المجنون ليس أنا».. والمجنون وحده هو الذي يتحمل مسؤولية ما رواه لي، أما أنا فلم أقم إلا بتسجيل مغامراته ورحلاته، بعد أن أهداني مجموعة جميلة من الأقلام والأوراق، ومن ناحيتي فإني لست مهتماً بأن يصدق العقلاء ما رواه المجنون أو أن يكذبوه أو أن يطالبوا بالقبض عليه، كما فعل أمير الشعراء شوقي «بك» فالمهم أني شخصياً بريء ومطيع ولا أحب التمرد، وإنما أحب أن أكرر ما قاله «الواعظ» في «مأساة الحلاج» لأستاذي العظيم صلاح عبد الصبور:

باح...!
بم باح، لكي تأخذه الشرطة؟
لا أدري،وعلى كل، فالأيام غريبة
والعاقل من يتحرز في كلماته
لا يعرض بالسوء
لنظام أو شخص أو وضع أو قانون
أو قاض أو وال أو محتسب أو حاكم

«حسن توفيق»

٢

المجنون يسمي نفسه رمسيس.. ليهرب من ملاحقة الجواسيس

خلال إحدى جولاته في باريس.. سمى المجنون نفسه «رمسيس».. متصوراً أن هذا الاسم.. يبعده عن المكائد التي لا تجلب إلا الهم.. خصوصاً وأن هناك ولعاً بالحضارة الفرعونية.. في قلب كل فرنسي وفرنسية.. وهكذا أنكر المجنون أنه عربي.. حتى لا يقال إنه إرهابي.. وحتى يبتعد عن ملاحقة الجواسيس.. ويخطف – في نفس الوقت – قلوب بنات الفرنسيس.. ممن تتميز أجسادهن بالرشاقة.. وتجيد كل منهن التنهد قبل النوم وبعد الإفاقة.. كما تتبع كل منهن في الموضة أدق المقاييس.. لأنهن يعرفن الفرق بين النساء والجواميس.. ويرفضن أن تتحول المرأة إلى جاموسة.. وإن كن لا يرفضن أن تعمل جاسوسة.. طالما أن إغراءها.. يتكفل بجعل الحمقى يندفعون وراءها.. لكي يُقبلوا التراب تحت قدميها.. ويخبئوا أسرارهم ما بين نهديها!.

زاغ المجنون من قطة كانت تلاحقه وهي تموء.. ودخل ملهى «الليدو» بكل هدوء.. واختار قليلاً إلى أن اختار مائدة.. اتخذ منها لنفسه قاعدة.. يراقب منها حركات النساء.. ويستمتع بما حوله من لهو ورقص وغناء.. إلى أن أقبلت نحوه قطة لطيفة.. تستر جسمها بأوراق توت خفيفة.. حيث أشعلت الشمعة التي أمامه.. وسألته – بلطف – عما يثير اهتمامه.. وماذا يفضل في العشاء.. ومن أي بلاد الأرض جاء:

★ اسمي «مونيكا باريس».. وأنت من تكون يا «خير جليس»؟

- أنا «رمسيس»!

★ من أقارب «إيزيس» و«أوزوريس»؟

- هذا ما كان.. أما الآن.. فهناك ملهى باسمي في مصر.. ودور للسينما بلا حصر.

★ هذا يعني أنك لا تعيش الآن سنوات المجد؟

- لكل بحر جزر ومد.

★ إذن أتركك الآن مع ذكرياتك.. وأتمنى أن تحقق كل أمنياتك.

بعد قليل تلفت المجنون حواليه.. فرأى رجلاً تطل العبقرية من عينيه.. لكنه أحس أنه ليس غريباً عليه.. وكان الرجل يتمتم بين الحين والحين.. بشعر عربي مبين:

«مـال واحتجـب وادعـى الغضـب
ليـت هـاجري يشـرح السـبب
عتبـه رضـى ليتـه عتـب
عَـلَّ بيننـا واشـياً كـذب»

بعد أن سمع المجنون ما سمع في اللحظة والتو.. اختلطت في ذهنه قواعد اللغة والنحو.. وخاف أن يقع في خطأ أو سهو.. لأنه أدرك أن الرجل هو أمير الشعراء.. ورأى المجنون دون إبطاء.. أن يتأكد من الأمر.. كان لابد أن يلجأ إلى الشعر.. فقال على الفور:

«يا جارة الوادي» رجعت مؤملاً
أن آكل البرقوق من يمناك
فتبعثرتْ لغة الكريز وزحلقت
رجليَّ في أرض الندى رجلاك

نظر أحمد شوقي للمجنون في غضب.. وقال له: ما هذا الذي تقول يا أخا العرب؟.. إذا كنت تحب الكرز والبرقوق.. فإني مستعد أن أشتري لك منهما أكثر من صندوق..

لكني أرجوك أن تتوقف عن الهزل.. لأني لم أقل أبداً مثل هذا القول.

أدرك المجنون أن الرجل هو «شوقي بك» بالفعل.. فأحس كأنه قد غرق في الوحل.. وعلى الفور قام من مكانه بسرعة.. واندفع ليقبل أشهر صلعة.. صلعة أمير الشعراء.. وأكد له وهو يجهش بالبكاء.. أنه لم يكن يقصد الإساءة.. بقدر ما كان يريد التأكد أن الرجل الجالس إزاءه.. والذي تشع العبقرية من عينيه.. هو أمير الشعراء الذي لا يعلو أحد عليه.

ارتاح «شوقي بك» واتخذ هيئة الطاووس.. وهو يأمر المجنون بالجلوس.. لكي يسقيه من الشراب ما يشاء.. طالما أن هناك من يتذكرون أمير الشعراء.. في زمن عربي يخلع الرداء.. ويُقبِّل أقدام الغرباء الدخلاء.. بمجرد أن يعرف أنهم أقوياء.. وقبل أن يسأل «شوقي بك» المجنون.. عمن تراه يكون.. قال له: طمئني عن الأحوال.. أما زال العرب والمسلمون يواجهون الأهوال؟.. وهنا ردّ المجنون وقال:

«إلام الخلف بينكمو إلاما

وهذي الضجة الكبرى علاما

وفيم يكيد بعضكم لبعض

وتبدون العداوة والخصاما؟»

obeikandl.com

٣

الأرض ليست على مقاسي .. وجوها يمطر المآسي

قال أمير الشعراء شوقي «بك» للمجنون.. الآن أود أن أعرف من تكون.. طالما أننا أصبحنا صديقين.. لكني بالطبع لا أريد أن أعرف ما تراه العين.. فهذا من أسهل الأمور.. ولا مجال فيه بالتالي لأحاديث قد تدور.. ما يهمني حقاً هو أن أعرف حقيقتك.. خاصة بعد أن لمستُ أن طبيعتك.. تميل إلى اللهو والضحك والفرفشة.. وإن كنت أشعر أنك لا تحب المظاهر المزركشة.. فهل – يا ترى – أنا فعلاً بطبيعتك عالم.. أم أنني مجرد واهم؟!

ما هي إلا لحظات حتى أقبلت القطة اللطيفة.. وهي الفتاة التي تستر جسمها بأوراق توت خفيفة.. ربما بسبب إحساس جسمها بالحر.. أو لقلة ما تتقاضاه من أجر.. ووضعت الفتاة من عصير الفتاح المعتق كأسين.. ثم اختفت كالطيف في غمضة عين.. فابتسم المجنون ابتسامة ماكرة.. وقال لشوقي «بك» بنبرة شبه ساخرة:

★ اسمي رمسيس.. وجدتي الكبرى هي إيزيس!

– هذا كلام تضحك به على بنات الفرنسيس.. أما الحقيقة فهي أني قد رأيتك من قبل.. ولم يكن معك أقارب أو أهل.. ربما لأنك تحب أن تتأمل الكون.. وقد تتدخل أحياناً فيما ليس لك به شأن.

★ أعترف لك بأن اسمي ليس رمسيس.. لكني اخترت هذا الاسم هرباً من ملاحقة الجواسيس.. لأن جميع الأسماء العربية.. أصبحت الآن في الدول الأوروبية.. مقترنة بالإرهاب وبالقتل.. لكني لا أعتقد أنك قد رأيتني من قبل.

- ألست أنت الإنسان - الذي يمتلك صاروخاً عابراً للزمان.. وأحياناً تنطلق على صهوة حصان.. ولديك بوصلة عجيبة لتحديد الوقت.. وأحياناً أشعر أنك تتكلم دون صوت؟

.. وضع المجنون فجأة على رأسه طاقية الإخفاء.. فلم يعد يراه أمير الشعراء.. فاندهش شوقي «بك» أيما اندهاش.. وتخيل أن عقله قد طاش.. فاختلطت الحقيقة عنده بالخيال.. وارتعشت شفتاه فقال في الحال:

بـــاح فاكتـــأب منـــذ أن كتـــب
يمتطـــي حصـــا نـــاً لـــه العجـــب
كلمـــا مشـــى أشـــعل الغضـــب
باحثـــاً عـــن الجـــ ـــد في اللعـــب
يعشـــق الأغـــا ني إذا اغتـــرب
إنمـــا لـــه دائمـــاً طلـــب
أن يـــرى خطـــى الحـــب تقتـــرب
بالجمـــال والـــ ـــصفو والطـــرب

أحس المجنون بالفرح والسرور.. فبادر بسرعة إلى الظهور.. حيث نزع عن رأسه طاقية الإخفاء.. كي يتمكن من رؤيته أمير الشعراء.. وقبل أن يفيق شوقي «بك» من دهشته.. رأى المجنون أن يزيد من حيرته.. فقال يصف نفسه ويصف الحصان.. مستخدماً نفس الوزن الذي اختاره شوقي «بك» دون غيره من الأوزان.

بـــاح فـــاحترق منـــذ أن نطـــق
يمتطـــي حصـــا نـــاً إذا انطلـــق
باحثـــاً عـــن الـــ ـــنور في نفـــق
والحصـــان مســـ ـــتعجل..قلـــق
مـــذ أطـــل مـــن شـــرفة الأفـــق
بعـــد أن مشـــى في دم الشـــفق
والصـــهيل مـــن قلبـــه انبثـــق

آه لـــــو أعـــــا د الصــدى الحُــرَق
إنـــــه إلى الـــــ ـــشمس قــد مــرق
بينمـــــا يـــــرى غيـــــره نهـــــق

ضحك شوقي «بك» ضحكة الأرستقراطي النبيل.. وقال إن هناك فرقاً بالطبع بين النهيق والصهيل.. بينما كان المجنون ينظر تحت قدميه.. ويتردد حرف «السين» متتالياً من شفتيه.. فسأله شوقي «بك» وهو يهز كتفيه:

★ لماذا تردد حرف «السين»؟.. هل أنت عاشق للنيل أم لنهر «السين»؟

- أنا عاشق للنيل ولكل الأنهار.. لأنها كلها تعشق الأشجار.. والأشجار دائماً تحب الاستقرار.

★ إذن فأنت تردد «سينية» البحتري.. وهو شاعر أحبه لأنه عبقري.

- وأنا أرى أنه في مجاري الشعر أكبر سمكري!.. لكني الآن أرى كائناً عجيباً تحت المائدة.. وأسمعه يتحدث عن قضايا ذات فائدة.. ويشير إلى طغاة عصور بائدة.. وطغاة عصور سائدة.. وهو الذي ينطلق حرف «السين» من فمه.. ليصور به مدى ألمه:

الأرض ليســـت عـــلى مقاســـي
وجَوُّهَـــا يمطـــر المآســـي
ومـــذ مشـــينا عـــلى ثراهـــا
نـــرى طغـــاة عـــلى الكراســـي
وبعضـــهم ثعلـــب وذئـــب
أو مغمـــض العـــين بـــاحتراس
وبعضـــهم أجـــوف عقـــيم
أو مائـــل الـــرأس في نعـــاس
وكـــم أضـــاعوا ومـــا أعـــادوا
والنـــاس مـــن ظلمهـــم تقاســـي
وهـــم جميعـــاً بكـــل أرض
يســـعون بـــالمكر لافتراســـي

obeikandl.com

٤

القطة في ورطة .. بعد تعهد الفأر.. بأخذ الثأر

بعد أن ظلت طيلة اليوم تموء.. دخلت القطة كي تنام وتنعم بالهدوء.. لكنها فوجئت بما جرى لها أثناء النوم.. حيث حاصرها أغرب حلم.. وألقى الحلم على ذيلها ظلالاً من الهم.. خاصة بعد أن أحست هذه القطة.. بأنها قد انزلقت في ورطة.. لم يسبق لأجيال من القطط.. أن انزلقت فيها ولو بالغلط.

رأت القطة في المنام أحد الفئران.. يقف أمامها بكل شجاعة وعنفوان.. دون أن يهرب من المعترك.. ودون أن يبدو عليه أنه ارتبك.. فقد تعهد هذا الفأر.. أن يقتل كي يأخذ بالثأر.. وفاء لذكرى أجيال.. قاست ما قاست من أهوال.. بعد أن تظاهرت القطط أنها معها تلعب.. ثم أنشبت في أجسادها ألف مخلب ومخلب.

مضغ المجنون قطعة من صدر بطة.. وارتشف رشفة أزاحت عنه «الزغطة».. ثم التفت إلى شوقي «بك» ليروي له حكاية القطة.. وكيف أنها انزلقت في ورطة.. ولم يصدق أمير الشعراء ما قاله المجنون.. إلا بعد أن أكد له أنه يستطيع أن يُسمعه صوتها المحزون.. عبر أسلاك التليفون.. وأكد المجنون أن القطة قد ظهرت في برامج حوارية.. روت خلالها حكايتها المأساوية.. أما الفأر الذي أصبح في نظر كثيرين.. إرهابياً من عتاة الإرهابيين.. فقد انفردت إحدى القنوات الفضائية.. ببث إحدى رسائله الجديدة الصوتية.. ومن خلال تحليل نبرات الصوت.. تم التأكد أن الرسالة حقاً بصوت هذا الفأر «الزفت»!

بكل ما يتمتع به شوقي «بك» من عقل.. قال للمجنون إنه لم يسمع أبداً من قبل.. مثل هذه الحكاية الغريبة.. وهي حكاية تدعو للشك والريبة.. وأكد أمير الشعراء إنه قد كتب عن الحيوانات والطيور.. ومن بينها الطاووس المغرور.. والثعلب الماكر المحتال.. والقرد الذي بمؤخرته الحمراء يختال.. كما كتب عن اليمامة الحمقاء.. والديك الذي كان من أذكى الأذكياء.. أما حكاية هذه القطة فإنها فعلاً غريبة.. ويبدو أن الدنيا ستشهد أشياء عجيبة.

تمايلت القطة البشرية الفرنسية.. في حضرة صاحب القريحة العبقرية.. فطلب منها شوقي «بك» عصير العنب المعتق.. بشرط أن تأتي به في دورق.. ورقصت فتاة إفريقية على إيقاع «التانجو».. بعد أن شوهدت وهي تشرب عصير المانجو.. بينما تلوّت فتاة أمريكية.. وهي ترقص رقصة هز البطن الشرقية.. فنظر أمير الشعراء.. نظرة دهشة واستهزاء.. وقال ما هذه السخافة؟.. أليس لكل بلد ثقافة؟.. وأجابه المجنون على الفور.. وهمس له فيما يشبه السر.. هذا ما تريد أن تفرضه العولمة.. حيث تختلط الأمور بصورة مبهمة.. وأكد المجنون أن الفرق ليس كبيراً بين «العولمة» و«العوالم».. وهو مثل الفرق بين الجائع والصائم.. فالعولمة تهز العقل لكي يختل الوزن.. أما هز العوالم للبطن.. فإنه يجعل العقل بلا شأن.

أشار شوقي «بك» بإصبعه إلى رجل معفر.. يجلس وحده كأنه على شيء ما يتحسر.. ويبدو كأنه «هندي أحمر».. وقال للمجنون: ألا تعرف هذا الرجل الجالس.. بوجه جامد عابس؟.. إنه «أبو البقاء الرندي».. أحد شعراء الأندلس المفضلين عندي.. والغريب أنه يذكرني الآن بحكاية القطة.. بعد أن زحلقها الحلم في ورطة.. منذ أن تعهد الفأر.. بأن يأخذ بالثأر.. فقال المجنون لأمير الشعراء.. يا ترى هل يمكن للمغلوبين الضعفاء.. أن ينتصروا على خصومهم الأقوياء؟!.. وهل يعقل أن يحلم الطغاة.. بأن يضيع منهم المجد والسلطان والجاه؟.. وقبل أن يجيب شوقي «بك» على أسئلة المجنون.. مزق «أبو البقاء الرندي» رداء الصمت والسكون.. وقال بصوت دامع محزون:

«لكل شيء إذا ما تم نقصانُ»

فقد تمرق ديـنَ القط فئرانُ

وقـد يطـارد فـار قطـةً هربـتْ

وقـد تثـور عـلى الأفيـال خرفـانُ

ويكتـوي أسـد مـن جـوع معدتـه

وحولـه تمضـغ الأعشـابَ غـزلان

ويشتكي ثعلب مـن ضـعف حيلتـه

إلى أرانـبَ قـد أضـحى لهـا شـان

ويرتدي الناس مـن أوهـامهم مزقـاً

كما اكتسـى بسـقوط الـثلج عريـان

قوافـل تعبـر الـدنيا بحرقتهـا

كما ارتضـى بميـاه البحـر عطشـان

obeikandl.com

٥

حمار يعترف للصحافة .. بأنه لا يحب النظافة

قانعة هي الحمير.. بالماء تكتفي وبالشعير.. وهي ترى أن الحياة كفاح.. ولهذا لا تطالب أبداً بأن ترتاح.. وفي سبيل الماء والشعير تعيش.. وتقبل على نفسها أن تظل في حالة تهميش.. وعلى الرغم من حب الحمير للقناعة.. سرت في الأجواء ألف إشاعة وإشاعة.. وكلها تؤكد أن الحمير.. أصبحت تطالب بالتغيير.. بعد أن أحست أن جميع الحظائر.. صارت أضيق من طموحها الثائر.. وقيل إن أصواتها ارتفعت بالنهيق.. وإنها أصبحت تشكو للعدو وللصديق.. من كثرة الأحجار والصخور في الطريق.. وهذا ما جعلها من البؤس لا تفيق.

كان المجنون قد خرج من ملهى الليدو في باريس.. بعد أن أقنع مونيكا بأن اسمه رمسيس.. وفي طريق العودة من الملهى إلى المغارة.. ضلت خطواته ما بين شارع وحارة.. وفجأة جمعت مصادفة سعيدة.. بينه وبين حمارة شريدة.. ضاعت منها البوصلة التي تهديها.. إلى الحظيرة التي تؤويها وتسكن فيها.. ولكن لم تكد تمر دقائق معدودة.. إلا وأطلقت الحمارة أعلى زغرودة.. بعد أن اقترب منها أحد الحمير.. فأدرك المجنون أنه صديقها الأثير.. ويبدو أن هذا الحمار من أصحاب الشهامة.. لأنه طلب من المجنون أن يركب على ظهره ولو إلى يوم القيامة.. وأخذ الحمار ينحني ويميل.. وهو يقول للمجنون بصوت خانع هزيل:

★ يبدو لي يا سيدي أنك إنسان فقير.. ولهذا لن أطالبك بالكثير.. فأنا بالماء أكتفي وبالشعير.. وكل ما عليك أن تركب فوق هذا الظهر.. ولا أريد منك ولو كلمة شكر.

- إني أفضل أن أمشي على القدمين.. وقد أتأمل الدنيا وأنا مغمض العينين.. أما إذا أردت أن أستريح.. فإني أكرب بساط الريح!

★ لكنك يا سيدي هزيل الجسد.. ومع هذا فأنت لا تحب أن يمن عليك أحد.. ولهذا لا تهتم بمجد أو مال.. وتفضل أن تبقى على هذا الحال:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله

ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده»

حاولت الحمارة أن تتدخل في الحوار.. فرفسها صديقها الحمار.. وأكد لها بعد أن هاج وثار.. أنه لا ينبغي لحمارة شرقية.. أن تقلد تصرفات الحمارة الغربية.. ولهذا فليس لها الحق في أن تتكلم.. حتى وإن كانت من الجوع والقهر تتألم.. أما المجنون فقد نجح في إصلاح ذات البين.. فعادت الأمور إلى مجاريها بين الاثنين.. وظل المجنون يمشي على القدمين.. على إيقاع حوافر الحمار والحمارة.. وبدا كأنه يتأهب لشن غارة:

★ أيها الحيوان الطيب الصبور.. لماذا لا أراك تثور.. إلا على حمارتك المسكينة.. رغم أنك تعيش عيشة مرة ومهينة؟

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

★ على الأقل أن تحلم ولو مرة.. بتغيير ما أنت فيه من عيشة مرة!

- أراك تحرضني على الثورة!

★ أبداً.. أنا لا أحرضك لأن الثورة الفردية.. لا يمكن أن تنجح حتى لو كانت دموية.. الثورات لا تنجح إلا إذا كنت مطلباً لجماعة.. لديها خطة وإرادة وشجاعة.

- لكني يا سيدي لا أحب غير القناعة.

★ ألم تسمع عن حمار «الحكيم».. هذا الذي تمرد على واقعه الأليم؟

- الحقيقة أني لم أسمع عنه.. فلماذا لا تحكي لي أنت ما جرى منه.

★ لقد تمرد حمار الحكيم.. في الزمن النائي القديم.. فقال متحدياً: متى ينصفني الزمان.. فأركب ظهر الإنسان.. فأنا جاهل بسيط.. ولست بالداهية أو الحويط.. أما الإنسان فهو جاهل مركب.. ومع هذا يحب أن يركب لا أن يُركب.

- «وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المرُكب؟»

★ «الجاهل البسيط هو الذي يعلم أنه جاهل.. أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه جاهل..».

- إذن فالجاهل البسيط هو الحيوان الصبور.. أما الجاهل المركب فهو الإنسان المغرور!

★ ليس بالنهيق وحده يحيا الحمار.. حتى لو رفع أجمل شعار.. إذ لابد من العمل باستمرار.. حتى لا يواجهه أحد بنظرة احتقار!

- باعتباري حماراً فإني بكل تأكيد.. لا أفهم ماذا تريد!

★ وأنا أقول لك إلى متى تكتفي بالماء والشعير.. دون أن تطالب بحقك في تقرير المصير.. ولماذا تقنع بالعيش في حظيرة قذرة.. تلسعك فيها ألف حشرة وحشرة؟

★ أعترف لك دون رجاحة عقل أو حصافة.. بأني لا أحب النظافة.. فضلاً عن أن التنظيف.. هو مجرد حكايات ملأى بالتخاريف.

- معنى هذا أنك تفضل القذارة!

★ لك أن تقول إني عدو للحضارة.. ما دام الظلم الذي يتحكم فيها يخفي آثاره.. حيث يغسله الظالمون بمعسول العبارة.. وعلى العموم إذا كان عندي طموح.. فهو أن تكون النظافة في القلب وفي الروح.. أما الآن فلك أن تقول للصحافة.. ولغيرها من وسائل المكر والسخافة.. إن الحمار لا يحب النظافة!

obeikandl.com

٦

قرار بقطع ذيل الحمار.. بعد اتهامه بفضح الأسرار

ليس للحمير تاريخ مكتوب.. رغم أنها كانت تشارك في الحروب.. ورغم أنها كانت ومازالت تنقل المؤن والحبوب.. والحقيقة أن الحمير تنظر إلى التاريخ.. تماماً كما ينظر الناس إلى ما فسد من الطبيخ.. لكن الحمار يعرف – تاريخياً – أنه مركوب.. وأنه دائماً على أمره مغلوب.. وإن كان في بعض الأحيان.. يحب أن يحرك فمه كأنه يمضغ اللبان.. ويتظاهر بأنه في منتهى الغباء.. حتى يخدع بتصرفاته جميع العقلاء.. وليس سراً أن الحمير تلتزم بمنهج دقيق.. يتيح لها أن تتعرف على خارطة الطريق.. لكنها لا تلتزم بهذا المنهج في النهيق.. فلكل حمار نهيقه الخاص المستقل.. مهما صغر شأنه أو قل.. وكل حمار يعرف أنه مستغِل.. وأنه لا يستطيع معاملة الناس بالمثل.

خلال مشي المجنون مع الحمار والحمارة.. أكد الحمار أن صديقته حمارة ثرثارة.. رغم أنها لم تقرأ «ثرثرة فوق النيل».. وهو أمر مؤكد ولا يحتاج لدليل.. فهي لا تتكتم على أي سر.. وهذا شيء لا ينفع بل يضر.. واشتكى الحمار أن لسان صديقته.. لا يكف عن الثرثرة أمام حمير حظيرته.. وأنها تحكي عما بينهما من أمور.. بعضها خاص وبعضها محظور.. من بينها أنه ابتلع حبة فياجرا مع الحبوب.. وأنه يهز ذيله تكفيراً عما ارتكب من ذنوب.. رغم أنه لم يفكر يوماً أن يتوب!.

طأطأت الحمارة أذنيها من فرط الخجل.. وأشارت إلى أنها لم تقلم بأي عمل.. تقصدُ منه تجريحاً أو إساءة.. وأنها قالت ما قالته بمنتهى البراءة.. كما أنها تحب حمارها لدرجة العبادة.. وتسعد بأنها طيلة عمرها له منقادة.. وهنا انحدرت دموع الحمار على خديه.. وبللت الأرض من حواليه.. فأعطاه المجنون ورقة كلينكس معطرة.. كما طلب من الحمارة أن تكف في المستقبل عن الثرثرة.. واختلطت أصوات الثلاثة ما بين كلام للمجنون.. ونهيق يتداخل وينفذ كالسهم المسنون:

★ لم أكن أعرف أن ما ابتلعته فياجرا.. ولا أنها تجعل الجسم في عنف شلالات نياجرا.. فالحبة التي ابتلعتها سقطت من يد مالك الحظيرة.. وهو عجوز مشبوه النية والسريرة.. لكنه يحب أن يبدو مفتول العضلات.. خصوصاً حين يخشى أن تضيع منه الحظيرة في لحظات.. ويقال إنه في جلسة سرية.. أكد لمن حوله أنه لن يتنازل أبداً عن الملكية.. لأن حظيرته هبة من السماء.. وهو وحده الذي يحقق لها الرخاء.

- لكنك تعلم يا صديقي الحمار.. وهذا ليس سراً من الأسرار.. أن الحظيرة أصبحت قذرة.. وفيها ألف حشرة وحشرة.. أما ما فيها من أسراب الفساد.. فإنها أكثر من أن يحصيها تعداد.

★★ وأنا قلت مثل هذا بالأمس.. فاتهموني بأني حمارة لا تميز بين الذيل والرأس.. لكني أعترف لكما بأني عرفت أخطر الأسرار.. فقد رأيت رجلاً يمسك بسيف بتار.. يؤكد لمن معه أنه اتخذ أصعب قرار.. وهو قرار بقطع ذيل صديقي وحبيبي الحمار.. بعد اتهامه بأنه يفضح الأسرار.

- فجأة ثارت في الجو زوبعة.. فاحتمى الحمار منها بالبرذعة.. وكذلك فعلت الحمارة التي معه.. أما المجنون فبقي وسط المعمعمة.. بينما اندفعت الريح.. حاملة صوتاً يفيض بالتباريح:

يصر الزوج أن يبقى شبابا
فيلتهم الكوارع والكبابا
ويهضم بطة في السمن ساحت
ويلحس بعدها عسلاً مذابا

وحـين يطـيش تخدعـه الفيجـرا
فيســرع للســرير بمــا أصــابا
وزوجتــه الجميلــة لا تبــالي
بمــن يحتــال كــي يبقــى شــبابا
فيحســبها، وبعــض الظــن إثــم
تريــد لبــه نعاســاً أو غيابــا
لكــي تلهــو مــع الشــبان لــيلاً
وتنــزع عــن مفاتنهــا النقابــا
يظــل الــزوج في غــم يعــاني
يخبــئ تحــت جفنيــه ارتيابــا
يؤجــل أن تبــث الشــمس نــوراً
ويفــتح للظنــون الســود بابــا
يقول: سأصلح الجدران وحدي
فــإني لم أزل زوجــاً مهابــا
وينســى الــزوج أن البيــت يهــوي
وأن ربيعــه أضــحى ســرابا
وأن النــور بالإصــلاح آت
ليفضــح مــن تلكــأ أو تغــابى
وأن الأرض تبحــث عــن فتاهــا
فهــذا الــزوج لم يقــرأ كتابــا
ولــيس بنــافعٍ بلــعُ الفيجــرا
إذا غــاب الشــباب ومــا أجابــا
«ولــيس بعــامرٍ بنيــانُ قــومٍ
إذا أخلاقهــم كانــت خرابــا»

obeikandl.com

٧

الحمار يبحث عن وسيلة للفرار.. بعد أن توعده السيف البتار

بعد أن همدت زوبعة الغبار.. التفت المجنون نحو اليمين ونحو اليسار.. فلم يعثر على أثر للحمار.. أما ورقة الكلينكس المعطرة.. فقد بدت في حالة مزرية منفرة.. بينما وقفت الحمارة المسكينة.. وقد أطل الذعر من نظراتها الحزينة.. وحين سألها المجنون عن الحمار.. أكدت له أنه واقف في الجوار.. لكنه يرتدي الآن برذعة مسحورة.. حتى لا تبدو هيئته منظورة.. كما أكدت الحمارة أن الحمار.. يفكر في وسيلة للفرار.. بعد أن توعده السيف البتار.. ولم يصدق المجنون هذه الأقوال.. إلا بعد أن تذكر أن كل كائن يحاول أن يحتال.. لكي ينجو مما يتعرض له من أهوال.. وأنه – شخصياً – يمتلك طاقية إخفاء.. تخفيه عن الأنظار وقتما يشاء.

كيف تستطيع الظلمات أن تندس في جسد النهار؟.. هذا ما قاله المجنون وهو يفكر في محنة الحمار.. فالحقيقة أن المحنة التي لا جدال فيها.. ولا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخفيها.. هي محنة البعد عن الوطن.. حيث تنكسر الروح ويتفتت البدن.. فما الذي يفعله الأسد إذا أجبر على ترك الغابة؟.. وما الذي يحس به إنسان يهجر أحبابه.. ليفر من ظلم يكشر أنيابه؟.. ولماذا تنتحر أقوى الحيتان.. حين تبتعد عما تعرفه من شطآن؟!

نظر المجنون إلى الحمارة المسكينة.. وخُيل إليه أنها أصبحت

أشبه بسفينة.. توشك أن ترتطم بالصخور.. بعد أن تمزق شراعها المكسور.. وصب المجنون ما صب من غضب.. على صاحب الحظيرة الذي نهب ما نهب.. دون أن يهتم بما تلقاه الحمير من تعب.. ما دام الشعير لها وله الذهب:

كأنمـا حوصـر الزمـان ... وغـاص في بؤسـه المكـان
ولم يعـد ينطـق اللسـان ... مـذ زخـرف الـزور بهلـوان

★ ★ ★

يقـول: يـا حضـرة الحميـر ... صـبراً عـلى التـبن والشـعير
واسـتعجلوا الآن في المسـير ... ليرفـل الجحـش في الحريـر

★ ★ ★

مسـتقبل زاهـر يطـل ... وفيـه ورد وفيـه فـل
وكـل جحـش لـه محـل ... ونحـن مـن أجلكـم نظـل

★ ★ ★

وبعـد أن نكمـل المسـيرة ... نعـانق الفرحـة الكبيـرة
ما أجمل العيش في الحظيرة ... للأوجـه الحلـوة النضـيرة

قالت الحمارة للمجنون.. إن كل شيء يهون.. ما عدا لوعة الفراق.. رغم أنها تجدد الأشواق.. وأشارت إلى أن لها مع الحمار قصة حب رقيقة.. بدأت فصولها عندما التقيا في إحدى الحارات العتيقة.. وأضافت إن لهما الآن جحشين.. لا تغمض لأي منهما عين.. إذا غاب عنهما أبوهما الحمار.. ليقضي حاجة له أو ليكمل ما يُطلب منه من مشوار.. فكيف سيكون حالهما إذا غاب الأب؟.. ومن الذي سيرعاهما بالحُب وبالحِب؟.. ثم أضفت والمع في عينيها حائر: إن الذين يهربون من الحظائر.. يتعرضون دائماً للكثير من المخاطر.. فقد يستغلهم آخرون.. مقابل ملاذ غير مضمون.. وقد يتغاضون عما يلقونه من إهانة.. ومنهم من يقبلون القيام بأدوار الخيانة.. ومنهم ن تدهسهم سيارة ملغومة.. تنطلق نحوهم من جهة غير معلومة.

ظلت الحمارة تجهش بالنهيق.. دون أن ترى خاتمة لخارطة الطريق.. لدرجة أنها تمنت لو قام السيف البتار.. بتنفيذ وعيده بقطع ذيل صديقها الحمار.. إذا كان هذا

يضمن وجوده إلى جانبها باستمرار.. ويبعد عن ذهنه فكرة الفرار.

بدا واضحاً أن الحمار.. كان منتبهاً إلى ما بين الحمارة والمجنون من حوار.. وأنه استمع إلى أدق تفاصيل ما دار.. والدليل على هذا أنه أطلق جرعة من النهيق.. تتابعت ما بين الزفير والشهيق.. وتصاعدت كأنها ألسنة حريق.. وفجأة خلع الحمار برذعته المسحورة.. وعلى الفور بدت هيئته جلية ومنظورة.. ولم يتردد في القول لحمارته الثرثارة.. إن أقوى جيوش الطغيان بالجرارة.. تستطيع أن تقتل كل يوم ألف نفس ونفس.. لكنها لا تستطيع أن تحجب نور الشمس.

obeikandl.com

٨

الحمار ينجو من عدة كمائن .. ويحتال كي يتحول إلى مواطن

«.. أفقد حياتي ولا أفقد ذيلي.. قولي هـذا لأصـحابي ولأهـلي.. ورغم أني حمار إلا أني لن أخضع. ولن أقبل لهذا الذيل أن يُقطـع.. كيف أهش الحشرات التي ترتفع؟.. وكيف أبعدها عن ظهري قبل أن تلسع؟.. لا.. لن أتخلى عن هذا الذيل.. مهمـا توعـدني الظلـم بكل الويل.. أما أنت يا حمارتي ويـا نـور العـين.. فـإني أرجـوك أن تهتمي بالجحشين.. وتأكدي أنك ساكنة في القلب.ز لكني لن أعود للحظيرة إلا إن عاد الحب».

هذا ما نطق أو نهق به الحمار.. قبل أن يفـر هارباً مـن السـيف البتار.. ولم تستطع الحمارة أن تمنع ما اتخذه الحمـار مـن قـرار.. ولهذا طلبت من المجنون أن يسير معه.. حتى لا تقلق عليـه كلمـا ثارت زوبعة.. وبالطبع فإن المجنون وافق على هـذا الأمـر.. لكنـه رجاها ألا تبوح لأحد بالسر.. وهكذا تحـول المجنـون إلى حلقـة وصل.. ما بين القاعدة وما بين الذيل.

بمجرد دخول الحمارة من بـاب الحظيـرة.. تعرضـت لصـفعات مؤلمة كثيرة.. وتلقفتها بالعصي مجموعة من الشـياطين.. وإن كانـت وجوهها وجوه آدميين.. وعلى الفور جيء بالجحشـين.. وقـد فقئـت من عيني كل منهما عين.. عقاباً لهما على أعظـم جريمـة في الكـون.. بعـد أن رفضـا أكـل الـروث المخلـوط بـالتبن.. وبعهـد أن شـربت الحمارة من كؤوس العذاب.. بدأ التحقيق معها والاستجواب:

★ أين كنت أيتها الحمارة الساقطة.. ولماذا تطلقين علينا سهام نظراتك الساخطة؟

- كنت أنوي أن أرحب بكم بالطبع.. لكني الآن لا أملك سوى الدمع.

★ هذا النهيق ينطوي على سوء نية.

- لا أملك غيره أهديه تحية.

★ وأين حمارك الذي لا يكف عن النهيق..متوعداً سماء الحظيرة بألف حريق وحريق؟

- لا أعرف أين هو الآن.

★ إذن استريحي الآن.. وسنستأنف بعد فاصل الإعلان.

.. على أحد مواقع الإنترنت الثرثارة.. قرأ المجنون للحمار عما جرى للحمارة.. لكنه لم يخبره بما جرى للجحشين.. حتى لا تفيض الدموع أنهاراً من العينين.. ولم يجهش الحمار بالنهيق.. لكن الثورة في قلبه تحولت إلى حريق.. وظل الاثنان هائمين ما بين قرى ومدائن.. وتنقلا من مكان إلى أماكن.. دون أن يشعر أحدهما بأنه آمن.. وإن كان الحمار قد نجا من عدة كمائن.. دون أن يستطيع مطاردوه أن يوقعوه في أي شرك.. بعد أن امتلك من الحيل ما امتلك.

تثاءب الحمار أكثر من مرة.. وظل يشكو من العيشة المرة.. وبعد أن استبعد به التعب.. طلب من المجنون أغرب طلب:

★ سأكون لك من الشاكرين.. لو استطعت أن تحولني إلى رجل من الآدميين!

- أنا لا أحب الذين يتخلون عن مبدأ أو جنسية أو وطن!.

★ ولكنك تعرف جيداً ما أواجه من محن.

- رغم المحن عليك أن تتفاءل.. ولا يحق لك أن تساوم أو تتنازل.. وأنا أؤكد لك أن صاحب الحظيرة شرير.. لكنه سينال ما يستحق من سوء المصير.

★ وأنا حين أتحول من حمار إلى رجل.. سأقول لكل هيا إلى العمل.. وحين يتواصل عمل الجماعة.. فهذا سيكسبها أعلى درجات المناعة.. ولن تكون الأمور على هذا النحو من البشاعة.

- إذا كان هذا ما تراه.. فإني سأسعى لتحقيق ما تتمناه.. وما دمت قد أفلت من الكمائن والمكائد.. فإني سأطلب من صديقي المارد.. أن يحولك من حمار إلى مواطن.. وفيما بعد نستطيع أن نستأجر لك أحد المساكن.

★ وماذا عن الحمارة والجحشين؟

- لا تكن متسرعاً في كل شأن.. لابد أن تتحول أنت إلى مواطن في البداية.. ثم نتابع بعد ذلك فصول الرواية.. ألم تسمع عن سياسة «خطوة.. خطوة»؟ أنا سأحاول أن أطبقها ولكن بالحيلة لا بالقوة.

★ أنت إنسان من الذهب!

- لا تنافقني فأنا لست من ذهب.. أنا قلب يواجه أبا لهب.. أنا مجنون العرب.

★ هل تحدثني عن هذا المجنون؟

- نعم.. إن من يعرفونه يقولون:

عاشق لم يَتُبْ ... صوته من لهبْ
يَعشق الشمس في ... كل أرض العرب
إن رأى نكبة ... في الديار اكتأب
أو رأى حلوة ... يحتويه الطرب
صدقه قلعة ... ليس فيها صخب
قلبه وردة ... حين يحلو العتب
صمته نسمة ... حين يطغى الغضب
إنه شاعر ... ذاب فيما كتب
شعره كنزه ... إن أتى أو ذهب
ليس يعنيه ما ... في القصور الذهب
نايه هائم ... في حقول القصب
والضحايا له ... إخوة في النسب

همـــــه أن يـــــرى ... مـــن يـــداوي العطـــب
في الزحـــــام ابتـــــدا ... للضـــــمير انتســـــب
لـــــيس في قلبـــــه ... قطـــرة مـــن كـــذب
والجنـــــون الـــــذي ... ذاب فيـــــه انســـــكب

obeikandl.com

٩

الحمار يواجه الناس .. ويؤكد أن معظمهم وسواس خناس

احتار الحمار واندهش وتلعثم.. حين رأى المجنون يضرب القمقم.. فتتصاعد من قلبه حلقات دخان.. ملأت أرجاء المكان.. وما لبثت أن تحولت خلال ثوان.. إلى مارد مفتول العضلات.. نظرته تتصارع فيها مختلف الرغبات.. وخطوته تعادل آلاف الخطوات.. وهمسته أعلى من صوت الزلزال.. لكنه ينظر للمجنون بتقدير وإجلال.. ولأن المجنون عاشق للحرية.. بشرط ألا تكون فوضوية أو وهمية.. فإنه رأى ألا يذكر المارد بما كان فيه من عبودية.. أيام الملك سليمان الحكيم.. في الزمان النائي القديم.. بل على العكس فإنه طلب منه الجلوس.. ثم أمره أن يقلب في صفحات قاموس.. لكي يتذكر ما كان آلهة الإغريق يفعلونه في الأساطير والحكايات.. وما كان لديهم من فنون في «مسخ الكائنات».. حيث يتحول القرد على أيديهم إلى غزال.. ويتحول «أطلس» العملاق إلى جبل من الجبال.. وتتحول النساء فجأة إلى تماثيل.. ليس لها في الفتنة والإغراء مثيل.

دون تحليل ممل للشكل والمضمون.. فهم المارد ما يقصده المجنون.. فاستجاب للمر على الفور.. وهكذا انتقل الحمار من العسر إلى اليسر.. حيث تحول إلى إنسان يحب ويكره.. لكنه أحس بالخجل بعد أن رأى ما استجد على العورة.. فكان لابد من البحث له عن ملابس.. تتوافق مع جسمه وهو واقف أو جالس.. وهذا ما كان حيث أهداه المجنون بدلة.. موديل «ألف ليلة وليلة».. وبعد أن لبسها

صاحبنا الحمار.. أصبح آية في الأناقة والوقار.

أهكذا يتم الانتقال.. بهذه السرعة من حال إلى حال.. ويتحول الكائن المسكين المهان.. من حيوان إلى إنسان؟.. هذا ما أدهش صاحبنا الحمار.. فأطلت من عينيه نظرات تقدير وانبهار.. وحاول أن يجهش بالنهيق.. معبراً للمارد والمجنون عن شكره العميق.. لكنه اكتشف أنه يهمس بكلام بشري رقيق.. وأنه أصبح على دراية بعدة لغات بشرية.. من بينها اللغة العربية.. رغم أنها تعاني الآن من ضعف الذرية.. ورغم ما يشيعه عنها المتفرنجون.. حيث يتحذلقون وهم يؤكدون.. أنها أصبحت لغة رجعية.. لا تتجاوب مع أجواء الحياة العصرية.

لم يتغير جسد الحمار فحسب.. وإنما تغيرت أشياء عديدة في العقل وفي القلب.. فمكان القناعة حل الطمع.. وتصور الحمار أنه يستطيع أن يأتي بالبدع.. فأكد للمجنون أنه منهمك في كتابة قصيدة.. وأنه سيخصص معظم أبياتها الفريدة.. في مدح المارد العملاق.. لكنه سيبدأها بالتعبير عن الأشواق.. تجاه الحمارة التي كانت نور العين.. وتجاه حبيبيه الجحشين.. وأكد الحمار أن القصيدة ستكون رائعة.. وأنه ينوي أن يترجمها إلى العديد من اللغات الشائعة.. فضلاً عن ترجمتها إلى بعض لغات الحيوانات.. لكي تقرأها كل الكائنات.. فمن الجائز أن ترشحها جهة من الجهات.. لنيل جائزة نوبل في الآداب.. خصوصاً وأنها خالية من التشنج العنصري المعاب.

قال المجنون للحمار إن الجوائز.. ليست حوافر بقدر ما هي حوافز.. ثم طلب منه أن يُسمعه المطلع.. ما دام يؤكد أنه أجاد في قصيدته وأبدع.. فوقف الحمار أمامه وأمام المارد في الحال.. وقال فيما قال:

أيهـا المـارد العريـق سـلاما

مـن حمـار يـذوب فيـك غرامـا

إن شـعري في مـدحك اليـوم أحـلى

مـن نهيـق أضـأت فيـه الظلامـا

لم يعـد للنهيـق أي مجـال

بعـد أن صـغت درة تتسـامى

بعـد هضـم الشـعير ذات زمـان

أصـبح الأكـل بطـة أو حمامـا

منـذ غابـت زريبـة الأمـس عنـي

صـار «كتـاكي» قبلـة ومقامـا

أعجـز الشـكر مهجتـي ولسـاني

فتقبـل تحيـة واحترامـا

قطب المجنون جبينه وقال على الفور.. كيف استطعت يا حمار أن تكتب هذا الشعر؟.. أتريد إقناعي بأنك شاعر حاذق؟.. للأسف فإن هذا الشعر يؤكد لي أنك منافق.. وهنا احمرت أذنا الحمار من الخجل.. وقال في شيء من التردد والوجل.. يبدو أن طبيعتي قد تغيرت منذ أن تحولت إلى إنسان.. وإذا كنت سأتوقف عن النفاق منذ الآن.. بناء على أوامرك المطاعة.. فإني أرى أن الناس باستثنائك أنت في منتهى البشاعة.. ربما لأنك كما تقول مجنون.. وبالتالي فإنك لا تفكر كما يفكرون.. وعلى العموم إذا أتحت لي أن أخرج معك.. لكي أصحبك في جولاتك وأتبعك.. فإنك ستراني أواجه بالصدق الناس.. لأؤكد لهم أن معظمهم وسواس خناس.. ولن تكون لصراحتي معهم حدود.. ما دمت أحيا في هذا الوجود.

obeikandl.com

١٠

الحمار يقرر العودة للأصل.. حتى يلتئم شمل الأهل

«من حقك يا مجنون أن تقول إني حمار.. بمجرد أن أخبرك بما اتخذت من قرار.. كنت أفكر فيه على امتداد الليالي.. لكني لن أبلغك به في الوقت الحالي.. لأني متشوق حقاً للرحلة والتجوال معك.. وتأكد أني في النهاية لن أخدعك.. والآن ها أنا مستعد لأن أتبعك.. بعد أن نظفت أذني خصيصاً كي أسمعك..».

هذا ما قاله الحمار للمجنون.. بعد انصراف المارد في هدوء وسكون.. وبمجرد أن استمع المجنون لبعض التواشيح.. أصدر أمراً للحمار بأن يركب معه بساط الريح.. لينطلق الاثنان في الفضاء الفسيح.. حيث استغرق الحمار في النظر إلى ما تحته من الحظائر.. وإلى ما حولها من أكواخ وقصور وعمائر.. ورأى الحمار أن الناس أصبحوا صغاراً كالنمل.. لكنه أخذ يميز بين الجبل والسهل.. وبين الصحارى الكبيرة الخاوية.. وأمواج البحر المتدافعة الطاغية.

ضحك المجنون حين أخبره الحمار.. بما في ذهنه قد دار.. فقد أصبح يعرف معنى الجهات الأربع.. بعد أن كان يمشي فيما مضى على أربع.. أما المجنون فأخبره أن الرحلة ستتوجه أولاً إلى الغرب.. وأنهما سيطيران حول اليونان وإيطاليا وبلاد الصرب.. وأنهما ربما يهبطان في أسبانيا الأندلسية.. لكي يتعرف الحمار على بعض معالم الحضارة العربية.. وهنا أبدى الحمار أسفه الشديد..

لأنه لم يكن يعرف الفرق بين قديم وجديد.. بحكم أن الحمير ليس لها تاريخ مكتوب.. يتهكم في صفحاته الغالب على المغلوب.. ويتباهى فيه الراكب على المركوب.

بكى المجنون وهو يحكي للحمار عن صراعات الناس.. وعدم تسمحهم مع غيرهم ممن يختلفون عنهم في العقائد والألوان والأجناس.. وهنا طلب الحمار أن يزيده المجنون علماً.. حتى لو كان هذا سيزيده غماً.

★ هل تعرف يا سيدي المجنون.. أن أبناء جنسي السابق لا يتصارعون.. وأنهم يتجاورون ويتحاورون.. وهم يمضغون الشعير الذي يأكلون.. وأؤكد لك أنه لم تقع حادثة في الليل أو في النهار.. قام خلالها حمار بقتل أخيه الحمار.. فلماذا يتصارع الناس مع بعضهم؟.. ولماذا يقيدون حركة الضعفاء منهم بلجام بغضهم؟.. أرجو ألا تكون أسئلتي تجاوزاً للحدود.. وأتمنى أن تسامحني لو كنت قد وقعت في خطأ غير مقصود.

– وأنا أؤكد لك أن العقل البشري موجود.. حتى وإن كنت أرى أنه محدود.. المشكلة ليست في العقل بل فيما يحرك هذا العقل.. وهو عادة يتحرك بغرائز قبيحة لا تجلب إلا الويل.. في كل زمان ومكان.. يقتل الإنسان أخاه الإنسان.. قابيل قتل أخاه هابيل.. والقتل امتد إلى عام الفيل.. وهناك في اليابان مدينتان جميلتان.. ألقيت عليهما قنبلتان ذريتان.. أما في أفغانستان.. فقد حاولت جماعة خيبان.. أن تدمر تمثالاً لإنسان.. غاب عن الدنيا منذ زمان.. ومقابل هذا شهدت أسبانيا محاكم تفتيش طاغية.. دفعت بالناس المختلفين إلى أبشع هاوية:

ها هنا الأندلس

قاتل النور نادى جموع الحرس

فتشوا في قلوب يتامى العرب

فتشوا واقتلوا وافعلوا ما وجب

– الزمان انقضى إنما قاتل النور لم ينتبه

منذ أن ظل يمشي وفي كل قلب يرى يشتبه –

ها هنا طالبان

قاتل النور نادى سيوف الإبادة

اسحقوا رأس بوذا بغير هوادة

واصعدوا بعد حين لعليا الجنان

أمطرت عينا الحمار سحابة من الدمع الهتون.. وقال بصوت متهدج للمجنون: إذا كنت قد زدتني علماً.. فإنك للأسف قد زدت غماً.. وطالما أن الحمار لا يقتل أخاه الحمار.. لا في الليل ولا في وضح النهار.. فقد آن أن أخبرك بما اتخذت من قرار.

استبد بالمجنون فضول.. ما لبث أن تحول إلى عاصفة من الذهول.. عندما أخبره الحمار أنه قرر العودة إلى الأصل.. بعد أن اشتقا للحظيرة بالفعل.. وأنه يتطلع للقاء الحمارة والجحشين وبقية الأهل.. وذلك حتى يلتئم الشمل.. ويذوب الواحد في الكل.. ولم يعترض المجنون على القرار.. رغم الصداقة التي توطدت بينه وبين الحمار.. وهكذا هبط بساط الريح.. من شرفات الفضاء الفسيح.. وقبل استدعاء المارد من قلب القمقم النفيس.. قال المجنون للحمار: لقد كنت لي خير نديم وجليس.. فاسمح لي أن أحتفظ عندي بالبرذعة.. تذكاراً لرحلة طويلة وممتعة.. عشنا فيها لحظات صعبة.. وخضنا خلالها بين الصحارى والحقول الخصبة.. والآن وداعاً أيها الصابر الحزين.. يا من تتحلى بالقناعة على امتداد السنين.. وقبل أن تفارقني عائداً إلى الحظيرة والأهل.. حتى يلتئم الشمل.. لابد لي أن أكرر ما سبق أن أوضحته من قبل.. قانعة هي الحمير.. بالماء تكتفي وبالشعير.

obeikandl.com

١١

المجنون يلتقي مع نعامة .. ضلت خطاها سكة السلامة

بعد أن شرب المجنون وتعشى.. قرر أن يخرج إلى الصحراء كي يتمشى.. مصطبحاً معه القمقم النحاسي النفيس.. فربما احتاج لنجدة من المارد الأنيس.. وهو الذي لا يرفض للمجنون أي طلب.. وإنما يلبيه دائماً بمنتهى الأدب.. ويرر المجنون لنفسه اصطحاب القمقم.. حيث أخذ يهذي ويتمتم.. بأن الأرض لم يعد فيها أمان.. لا بسبب كوارث الزلزال أو الطوفان.. وإنما بسبب بطش الإنسان بالإنسان.. وتذكر آسفاً أن صديقه الحمار.. أكد له ذات نهار.. أن الحمار لا يمكن أن يقتل أخاه الحمار.. بينما يقتل الإنسان أخاه باستمرار.. متذرعاً بأي سبب.. قد لا يكون مدعاة للغضب.

خُيل للمجنون أنه يرى قبة من القباب.. تشع نوراً فوق إحدى الهضاب.. ولم يكن هذا من أثر الشراب.. وإنما حقيقة لا يشوبها أي سراب.. ودفعه الفضول فانطلق بخطوات أسرع.. كي يتبين هذا الذي يلمع.. فإذا به يكتشف أن القبة نعامة.. يبدو أن قد حلت لها الإقامة.. أو أن عائقاً يمنعها من الحركة.. فجلست مكانها حتى لا تبدو مرتكبة.. ومن ناحيته حاول المجنون إجراء حوار.. مثل الذي كان قد أجراه مع الحمار.. لكن النعامة لم تستجب ولم تنطق كلمة واحدة.. فأدرك المجنون أن الحوار ليس ذا فائدة.. لأن الحوار لا يكون إلا بين طرفين.. أو بين أكثر من طرفين.. حيث يقول المتكلم ما لديه.. بينما يظل الطرف الآخر يصغي غليه.. ثم ينطلق للرد عليه.

كانت النعامة تبدو على أمرها مغلوبة.. وكأنها سفينة في عرض البحر مثقوبة.. وكان على المجنون أن يعرف السر.. فاستدعى المارد من القمقم على الفور.

★ يا سيدي المجنون.. ليس في الأمر سر ولا يحزنون.. إن هذه النعامة ليس لها أذنان.. وبالتالي فإنها لا تسمع زقزقة عصفور أو طقطقة نيران.. لهذا لن تتمكن من الرد.. مهما ظللت تثرثر دون حد!

- هل هذه النعامة وحدها هي التي لا تسمع؟

★ أؤكد لك أن النعام كله لا يسمع.

- أنت على حق أيها المارد.. فأنا أتذكر الآن إني قرأت في التراث العربي الخالد.. أسطورة أو حكاية عجيبة التفاصيل.. وهي تؤكد هذا الذي قيل.

★ وأنا أحب الأساطير.. خصوصاً إذا كان فيها ما يثير.. فهل لك أن تحدثني عما عرفت.. مما تقول إنك عنه قد قرأت؟

- بكل غرور!... أقصد بكل سرور. يروون فيما يروون.. منذ أقدم القرون.. أن النعامة قد ذهبت كي تطلب قرنين.. فعاقبها الناس وقطعوا لها الأذنين.. ولهذا فإنها سُميت في اللغة العربية بـ «الظليم».. بسبب ما وقع ضدها من ظلم عظيم.. فقد ظلمها الناس لأنهم لم يعطوها القرنين.. ولم يكتفوا بهذا بل قطعوا لها الأذنين!

★ هذه حقاً حكاية عجيبة.

- سأخبرك بما هو أعجب ما دمت تحب الإصغاء.. أتعرف أن النعامة لا تشرب الماء؟.. أتعرف أن للنعامة خفاً كالجمل.. وأن الخف يساعدها في الجري دون كلل؟

★ هذا أعجب ما سمعت!

- اسمع ما هو أعجب إذا أحببت.. إن العلماء القدماء يؤكدون.. أن النعامة ليست من الطيور وإن كانت تبيض ولها جناح وريش.. وهم يرون أن الخفاش طائر، رغم أنه يحبل ويلد صغار الخفافيش!

★ وهذا أيضاً أمر عجيب.. ويذكرني بأمر مريب!

- أفصح أيها المارد عما تود أن تقول.. حتى لا تجعلني أقول عنك إنك خجول.

★ لقد تذكرت الجنس الثالث الذي يتحدث عنه البشر.. ويُنشر عنه ألف خبر وخبر.

.. أطلق المارد ضحكة خافتة ونحيلة.. على الفور طلب منه المجنون خدمة جليلة.. حيث أمره بأن يتفاهم مع النعامة.. فربما تكون قد جلست وحدها لأنها ضلت سكة السلامة.. وقال المجنون للمارد هيا إلى العمل.. واستخدم ما في جعبتك من فنون وحيل.. فعلى الكائن الحي أن يساعد الآخرين.. إذا أحس أنهم من العجزة والمستضعفين.

أحس المارد بقدر من الزهو والفخر.. لأن المجنون بدونه لا يستطيع اكتشاف السر.. وأكد أنه سينطلق للعمل بحكمة وكياسة.. وأن ما سيفعله لا يستطيع القيام به أمهر الساسة.. ومن خلال المارد عرف المجنون.. أن النعامة قد أصيبت بسهم مسنون.. وأن إحدى ساقيها قد أصبحت هامدة.. وهي لا تستطيع النهوض بساق واحدة.

هل يُعقل أن يتحرك الكل.. بينما تظل النعامة تشرب كأس الذل؟.. لابد من إيجاد حل.. وهذا ما سيتكفل به المارد والمجنون.. لأن الحياة ترفض منطق الذين يستسلمون.. ولأن الطغاة - عادة - لا يدوسون.. إلا على الذين يتجمدون ويسقطون:

تجمدت من يأسها النعامة

ضلت خطاها سكة السلامة

كم أطلقت بالعنفوان خطوها

حتى ارتقت إلى ذرى الكرامة

لكنها الآن بدت خائفة

تلتف بالوحل وبالقمامة

والخـــائفون يشـــربون وهمهـــم

ويـــذرفون صـــمتهم علامـــة

يلقـــون مـــا كـــان لهـــم مـــن عـــزة

عـــلى رمـــال الـــذل والندامـــة

فالصـــائدون حومـــوا وٍدمـــدموا

والســـهم لا يـــرحم مـــن أمامـــه

obeikandl.com

١٢

النعامة بين الكيل بمكيالين .. ومحاولة استرداد الأذنين

رفض المارد الخوض في أي حديث.. يتعلق بشهرة النعامة في الجري الحثيث.. لأن ما كانت تتحلى به من عنفوان.. قد أصحب في خبر كان.. أما الآن فإنها لا تحصل إلا على درجة صفر.. في كل مسابقات هذا العصر.. ومن ناحيته حاول المجنون أن يؤكد للمارد.. وهو يعود به للزمن البائد.. أن قدماء المصريين.. كانوا للنعامة عاشقين.. كما أنها كانت تنطلق بكل حيوية.. فوق رمال الصحارى العربية.. ولهذا كان الشعراء الصعاليك يتفاخرون.. بأنهم يسابقون النعامة أحياناً وهم يجرون.. وهؤلاء ينطبق عليهم المثل القديم.. «أعدى من الظليم».. ومرة أخرى رفض المارد اللجوء إلى التاريخ.. حتى لو كانت النعامة قد وصلت إلى المريخ.. فالمهم هو ما نفعله الآن.. وليس ما كان في قديم الزمان.

«أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل.. وأيام بتيجي على ولاد الأصول تنذل».. ومع هذا فلابد من إيجاد حل.. وهكذا وقف المارد وحده في الخلاء.. لينادي على أحد من يعرفهم من الأطباء.. واقترب الطبيب بكل هدوء من النعامة.. ثم أكد أنها ستظل يائسة حتى يوم القيامة.. إلا إذا عادت عزيمتها إلى الروح.. واستيقظ ما كان لها من طموح.. وطلب الطبيب إعطاءه مهلة سنتين.. حتى يعيد للنعامة ما كان لها من أذنين.. كما طالب بأن يحصل على

أجره بالدولار.. وإلا أحرق النعامة بالسولار.. وكاد المجنون يجهش بالبكاء وبالنحيب.. وهو يصرخ فيوجه الطبيب.. أتريد مهلة سنتين ونحن في عصر السرعة.. أأنت نصاب أم طبيب بارع في الصنعة؟!.

خاف الطبيب من غضب المجنون والمارد.. فاقترب مرة أخرى من جسد النعامة الهامد.. لكمنه لاحظ أنها ترتجف من ارتفاع الحرارة.. رغم أن معدتها كانت تهضم الحديد والحجارة.. وتم حقن النعامة بحقنة من المسكنات.. وهذا ما أعادها لبعض من الثبات.. وقال الطبيب إن الحرارة ما تزال مستمرة.. لكن الحالة الآن مستقرة.. وسرعان ما بدأت النعامة تهذي بأصوات ليس بينها انسجام.. تماماً كما يهذي بعض النيام في المنام.. وأخذ حلقها يجاهد كي يبعد الغصة.. وهي تروي ما كان لها من قصة.

«إذا كان الحمار قد كره الناس.. ورأى أن معظمهم وسواس خناس.. فإني أرى أن الناس لا يظلمون.. إلا إذا أحسوا أنهم على غيرهم متفوقون.. وهذا ما يفعله الجميع.. حين يقومون بكل ما هو فظيع.. لقد طلبتُ منهم أن يعطوني قرنين.. ففوجئت بأنهم قطعوا ما كان لي من أذنين.. وهكذا لم أعد قادرة على الاستماع.. لما يثار أو يقال في أي اجتماع.. ولابد هنا من الإشارة إلى ما رأيته بالعين.. حيث يتبع الكل سياسة الكيل بمكيالين.. فالحمار يمتلك أطول أذنين.. وللفيل أعرض أذنين.. وها أنا وحدي أعيش بغير أذنين».

توقفت النعامة عن الهذيان.. وهي تتشنج كأنها وعاء في حالة غليان.. وهنا أكد الطبيب بشكل حاسم لكنه عملي.. أنه سيحاول إقناع البنك الدولي.. بأن تسترد النعامة ما لها من أذنين.. بشرط أن تتعهد بسداد ما عليها من دين.. وقال الطبيب بنبرة صوت زئبقية.. إن وكالة الطاقة الذرية.. قد أبلغته بأن الطلب الأول للنعامة.. قد أثار قلق مديرها واهتمامه.. وذلك لأن طلب الحصول على قرنين.. من شأنه أن يجلب سوء الظن.. فضلاً عن أنه طلب غير مشروع.. يدخل في دائرة المحظور والممنوع.. وكان لابد للوكالة أن تحتاط.. حتى لا تختلط الأمور دون أن يحكمها رباط.. فمن الجائز جداً أن يقع القرنان.. في أيدي المارقين من أتباع الشيطان.. ومن الجائز أن تتشابك القرون.. كما تتشابك في الغابات الغصون.. ثم ماذا لو أن النعامة استخدمت القرنين..

كي تدخل في صراع مع وحيد القرن؟.. على العموم فإن القضية ليست بسيطة.
وكالة الطاقة الذرية ليست عبيطة.. وباعتباري طبيباً فإني سأحاول.. أن أوفر للنعامة عدداً من البدائل.. ولكن ليس من حقها أن تختار.. وإلا ألقاها البنك الدولي في قلب النار.. فهذا جزاء المارقين.. ممن ظلوا عن القرون باحثين.

احتج المجنون على كلام الطبيب بشدة.. وهدد بطرده شر طردة.. وقال له: ليس لك بعد اليوم من عودة.. وظل المجنون في حالة ذهول.. وهو يصرخ في وجه الطبيب ويقول:

وحش الحضارة تخفي وجهه الحيل
ويختفي إن رآه الحب والأمل
الطب في موكب الدولار يخدعنا
ولم يعد بعلاج الخلق ينشغل
جاء الطبيب لكي يشفي أحبتنا
فاجتاحهم قلق وازدادت العلل
هذا هو الطب في فوضى مرخرفة
«مثل النعامة لا طير ولا جمل»

obeikandl.com

١٣

النعامة ترفض العلاج .. وتؤكد أن الغش قد راج

تبرأ المارد من صديقه الدجال.. وأشار إلى أنه يحتال.. لكي يسرق من المرضى ما لديهم من أموال.. وأنه واحد ممن يستنزفون ثروات الآخرين.. وحين يستمعون إلى شكوى أو أنين.. تتحول آذانهم أجمعين.. إلى «ودن من طين وودن من عجين».. أما المجنون فقد استغرق في قراءة إعلانات.. منشورة على صفحات الجرائد والمجلات.. وكلها تعلن عن تقديم مساعدات.. للنعامة التي قطعوا لها من كان من أذنين.. دون أن يسمحوا لها بالحصول على القرنين.. حيث أعلن حمار عن تبرعه في حالة وفاته بأذنيه.. بينما أعلن غزال عن تبرعه بقرنيه.. هذا إذا تعرض للاغتيال.. أو وقع في كمين في أحد الأدغال.. وأحس المجنون أن هذه الإعلانات هي للاستهلاك المحلي.. وليست نابعة من تعاطف حقيقي.. لأن الذين يريدون أن يساعدوا عليهم أن يعملوا في صمت.. وألا يضيعوا في الإعلانات الوقت.

من ناحية أخرى رفضت النعامة تلقي أي علاج.. وأكدت أن الغش في هذا الزمان قد راج.. وأن الأدوية قد أصبحت سلعة وتجارة.. لأن صانعيها لا يفكرون في غير حسابات الربح والخسارة.. ولم تنس النعامة أن تشكر الحيوانات الصديقة.. على إعلاناتها المزوقة والرقيقة.. لكنها أسرَّت للمجنون بأنها لا تحب

أن يمن عليها أحد.. رغم كل ما تلاقيه من ضيق ومن نكد.. وعندما لاحظ المجنون أن المارد قد استغرق في التفكير.. قال له: «العبد في التفكير والرب في التدبير».. ولم يسأله المارد عن معنى أو تفسير.. وإنما شرع في تنفيذ ما كان يفكر فيه.. وهو عمل رائع يستحق الإشادة والتنويه.. حيث اقترب برفق من النعامة الجالسة.. في حالة محبطة ويائسة.. وأمسك رأسها بإحدى اليدين.. ثم ركب لها بالأخرى أذنين صناعيتين.. وهكذا عادت للنعامة حاسة السمع.. فذرفت عيناها من فرط الفرحة الدمع.. بينما اهتز المجنون ورقص بالطبع.. ثم بدا وكأنه شارد.. فاندفع تلقائياً ليسأل المارد:

★ لماذا لم تتحرك النعامة ولم تنهض.. مع أني كنت أتوقع أن تجري وأن تركض؟

– أنسيت يا مجنون أن إحدى ساقيها هامدة.. وأنها لا يمكن أن تتحرك بساق واحدة.

★ إذا كنت قد أعدت لها حاسة السمع.. فأنت تستطيع أيضاً أن تصلح الوضع.. أين ما لديك من فنون وحيل؟.. لا تتكاسل – أرجوك – فأنت دائماً تحب العمل.

– طلباتك أوامر.

★ إذن.. هيا.. وبادر.

مرة أخرى اقترب المارد من النعامة.. فأأس على الفور أنها متململة من قسوة الإقامة.. وكأنها تقضي حكماً بالإقامة الجبرية.. حيث لا تذوق طعم الحرية.. أما المجنون فقد أدرك أن المارد يتهيأ لإجراء عملية.. فتمنى له التوفيق في العمل.. حتى يتحقق ما يرجوه من أمل.. ولم تكد تمر دقائق معدودات.. إلا وقد تحقق ما يشبه المعجزات.. حيث رأى المجنون أن النعامة تنهض بصورة طبيعية.. فتيقن أن المارد قد ركب لها ساقاً صاعية.. ويبدو أن هذا ما كان بالفعل.. لأن النعامة نفضت عن ريشها الوحل.. واقتربت من المجنون بخطوات واثقة.. لتشكره على مشاعره الصادقة.

★ كنت أظن أني لن أنهض إلى الأبد.. وأنه لا ينبغي أن أتطلع إلى مساعدة أحد.. فقد كنت أرى حولي شقيقات كثيرات.. من بنات جنسي النعامات.. يدرن بالقرب مني عدة دورات.. دون أن أتلقى من أي منهن أية مساعدات.. وكنت أشعر بالخجل في قرارة نفسي.. وأنا أكاد أغوص في يأسي.. وقد غصت في اليأس أكثر.. عندما جاء الطبيب

الدجال يتبختر.. ثم طلب إعطاءه مهلة سنتين.. كي يعيد لي ما كان من أذنين.. وها أنا أتمتع الآن بنعمة السمع.. نتيجة توصياتك للمارد بالطبع.. والآن أستطيع القول إني لم أعد متخلفة.. ولم أعد عن ركب الحياة متوقفة.

قالت النعامة ما قالت للمجنون.. ثم اندفعت لتلحق بمن كانوا يسبقون.. مؤكدة أنها قد نفضت غبار القرون.. وبمجرد أن انطلقت بكل رشاقة وجمال.. نظر المجنون إلى المارد ثم قال:

تفتحت حلوة أزهار آمالي
مذ بدلت لمسات الحب أحوالي
فقلت للقلب والأفراح توقظه
اسمع صدى نغم أو نبض شلال
«نزه لسانك عن قول تصاب به
وارغب بسمعك عن قيل وعن قال»
وصغ من اللغة الخضراء جوهرها
واصفع به كل من دانوا لدجال
وقل لمن نهبوا بالغش ما نهبوا
لا يعرف الحب من ينقاد للمال
وهذه دورة التاريخ تنذركم
أن الزمان لمن يحيون آمالي
فابعدوا عن جبين الحلم خنجركم
ولتسقطوا جيفاً في عصرنا الحالي

obeikandl.com

١٤

الديك يؤكد أن الدجاج .. يبيض الآن بدون مزاج

نتيجة لإخلاصه وتفانيه.. في القيام بالعمل الذي يؤديه.. ونتيجة حرصه على جمع البيض الغالي لديه.. خر الديك فجأة مغشياً عليه.. بعد أن كاد يسقط من أعلى سطح.. عندما كان يهم بالتبشير الروتيني بميلاد الصبح.. وقد مارس الدجاج عمله المعتاد.. منذ أن فقد القدرة على التميز بين المصائب والأعياد.. أما الدجاج المقرب من الديك.. فإنه رفض أي محاولات للتشكيك.. في قدرة الديك على صيانة البيض.. وهذا بالطبع غيض من فيض.. وصاحت دجاجة بضة سمينة.. بعد أن نتفت إحدى ريشاتها الثمينة.. بالروح والدم نفديك.. يا حارس الدجاج بغير منازع أو شريك.. أما الدجاجة التي اختلط ريشها الأبيض بالسواد.. فقد صاحت إن ما جرى هو من كيد الحساد.. بينما شوهدت دجاجة حاقدة متهورة.. وهي لا تكف عن الثرثرة.. مبدية تعاطفها مع ديوك مقهورة.. كُممت مناقيرها بعد أن أصبحت صيحاتها محظورة.

تعاطف المجنون – من ناحيته – مع الديك الذي سقط.. لأنه لا يحب أن يرى العقد قد انفرط.. ولأنه – من جهة ثانية – كان يتصور.. أن الديك الذي تعثر دون أن يتكسر.. هو الديك الذي أحبه أمير الشعراء.. ورأى أنه أذكى الأذكياء.. خصوصاً بعد أن

استطاع أن استطاع أن يخدع الثعلب.. وجعله يدور حول ذيله وهو يتشقلب.. وقد انتصر هذا الديك وقتها وتغلب.. على ألف مكيدة وألف مقلب.. وظل يصيح بأعلى صوت.. وهو يواجه الحقد والمقت:

إن عزمي لن يلينا ... رغم بطش الظالمينا
ليس للثعلب عهد ... منذ أن كان جنينا
إنه أرضع مكراً ... في كهوف الماكرينا
فادعى الحب ولكن ... حبه كان كمينا
عندما جاء إلينا ... «في شعار الواعظينا»
ممسكاً باقة ورد ... «وهو يرجو أن ألينا»
وأنا أطلقت صوتي ... لن أحيي الكاذبينا
«مخطئ من ظن يوماً ... أن للثعلب دينا»

ضحك المجنون فجأة.. عندما أخبرته امرأة.. كانت تمشي في الطريق بلا مبالاة.. أن ديك أمير الشعراء قد تاه.. ثم باحت المرأة بأعجب سر.. بينما كانت عيناها تنطقان بالزهو وبالفخر.. ومن خلال حديثها عرف المجنون.. أن ديك أحمد شوقي يحيا في مكان مأمون.. ولم يحدث له مكروه ولم يسقط في كمين.. بل إنه يخرج كثيراً كي ينبه الآخرين.. إلى ما يكتشفه من كمائن.. ينصبها الثعلب في عدة أماكن.. وهنا أهدى المجنون للمرأة قطعة من اللبان.. حتى لا يتوقف لها أبداً لسان.

بالمصادفة وحدها وجد المجنون النعامة.. واقفة تتباهى بساقيها أمامه.. حيث أخبرته بأن الديك الذي كان قد سقط.. هو من نوع «حبيبك يبلع لك الزلط.. وعدوك يتمنى لك الغلط».. ولهذا فإنه لا يحاسب الدجاج المقرب.. عندما لا يحضن البيض كما يتوجب.. أما الدجاج الذي يتمرد.. لأنه لا يطيق أبداً أن يتجمد.. فإنه – عادة – يجعله في وضع مقيد.. تتأكد من كلامي إذا سألت صديقك المارد.. فهو يعرف أكثر مني أن الوضع الآن راكد.

حاول المجنون ألا يتدخل في أي شأن.. حتى لا يتعرض من جانب أحد لسوء الظن.. ولكن بعد أن طغى عليه الحزن. قال: كيف أسكت ولا أتكلم.. إذا كان الكل من

حولي يتألم؟.. قال المجنون ما قال.. لأنه لا يحب أن يهرب من مواجهة سوء الأحوال.. وإنما يحب أن يخوض في الزحام.. ويصغي دائماً بكل اهتمام.. لكل ما يتردد حوله من كلام.

في مقهى قديم يوشك أن يتهدم.. قال أحد الجالسين وهو يتلعثم.. إن أبناءه يحسون أن مستقبلهم في أظلم.. حتى من قبل أن يأتي المستقبل.. وذلك لأن المستقبل من الحاضر يتشكل.. وقال رجل آخر بصوت ساخر: أين هو هذا الحاضر؟.. إني أنصح من يستطيع الهجرة أن يهاجر.. حتى إذا كان سيطبل للعواهر.. ورد عليه ثالث وهو ينفث الدخان.. وأين هو الأمان؟.. إن الصراع الآن بلا حد.. لأن باب الرزق قد ضاق ويوشك أن ينسد.. وأنا شخصياً جئت الآن من الأسواق.. دون أن أحصل على ما أشتاق.. بل إن الشوق نفسه قد همد.. تماماً كالبيض إذا فسد.

دخل إلى المقهى رجل غريب.. وأخذ ينظر للكل بشكل مريب.. ثم قال بمنتهى الثقة.. عدة عبارات مرتبة ومنمقة.. حيث أشار إلى أننا نجتاز عنق الزجاجة.. وبعدها سيلتهم كل واحد أكثر من دجاجة.. ولكن علينا أن نتحمل الآن.. ما دام العالم كله في حالة غليان.. وأكد الرجل الغريب.. أنه قد يخطئ أو يصيب.. لكنه يعرف تمام المعرفة.. ودون حاجة لحذلقة أو فلسفة.. أن الديك الآن حزين.. وأنه ربما يفصح أن يبين.. بعد أن يلم ما تناثر من شظايا الزجاج.. وقال الرجل الغريب إن العولمة غول رجراج.. وإن الثور لا يمكن أن ينطحها حتى لو هاج.. ثم قال إن الديك أكد له أن الدجاج.. أصبح يبيض الآن بدون مزاج.

obeikandl.com

١٥

الديك يقفز من أعلى سور محتجاً على إنفلونزا الطيور

بعد أن أفاق الديك من الإغماء.. لم يعد يعرف الأفعال من الأسماء.. لكنه أكد لبعض القنوات الفضائية المثيرة.. أن إعادة الأمن لحظيرة.. ليست من القضايا السهلة واليسيرة.. نظراً لتسلل وحوش خطيرة.. تزرع الفتنة بين الدجاج باستمرار.. وأحياناً تقطع رؤوسها بالمنشار.. ورأى الديك أن الأمور أصبحت لا تطاق.. منذ أن انسكب الشقاق على الوفاق.. وكما يختلط الليل بالنهار.. اختلط الأسد مع الحمار.. وتحالف الماء مع النار.. وهكذا أكل الخروف لحم النمر.. ولم يعد للإنسان أي سعر.. يستوي في هذا من يسكن في فيلا أو قصر.. مع الحاوي الذي يمشي على الجمر.. وأبدى الديك كذلك دهشته الشديدة.. من نقر العصافير لصفحات كل جريدة.. خصوصاً بعد أن نبتت لتلك العصافير قرون.. أصبحت تتعلق بها فوق الغصون.. وعن طريقها تتدخل في كل الشؤون.

وفي مقابلة على الهواء مباشرة مع الديك.. بثتها قناة «تشكيك» المتخصصة في التليفريك.. شرح الديك وجهة نظره فيما يجري.. وقال إنه كان يتعاون مع وحيد القرن دون أن يدري.. لكنه دافع عن موقفه بحسم.. مؤكداً أن ديوكاً أخرى لم يحددها بالاسم.. قد تعاونت قبله مع هذا الوحيد.. وهذا أمر ليس بالجديد.. وهنا انطلقت الدجاجة المتهورة.. لتفضح موقف الديك ومنظره..

وقالت: أهذا ما تفتق عنه الذهن؟.. ألا تعلم يا سيد ديك أن سوء الظن قد استبد بكل من في الكون.. منذ أن أصبح وحيد القرن.. يتحكم وحده في لحم الضأن.. ويهيمن حتى على كل من ليس له شأن؟.. وإذا وضعنا وحيد القرن على الرف.. وتحدثنا بكل صراحة حر الصيف.. فماذا أنت قائل في الوضع السائد.. وماذا عن أعداد البيض الفاسد؟.. ولماذا تنعم دجاجاتك المقربة..بكل خيرات الحظيرة الطيبة.. بينما يحيا أمثالي في حالة معاناة.. وأنت تنظر بلا مبالاة؟.. وهنا تدخل المذيع في الحال.. واعتذر للديك عما قيل وعما سيقال!

أحس الديك بعد المقابلة بعسر في الهضم.. وتصور أن الدجاجة المتهورة دست له السم.. ولكي يرفع شعبيته التي تدنت إلى ما تحت الصفر.. أسر لدجاجة سمينة تكتم السر.. أنه سيلعب لعبة خطيرة.. وطلب منها أن تساعده باعتبارها أبرع خبيرة:

★ لن ألعب كالبهلوان على الحبل.. لكني أتصور أني قد توصلت إلى الحل.. سأصعد إلى مبنى يتلألأ بالنور.. وبعد الصعود سأقفز من أعلى السور!

- ولكن قد تنكسر رجلاك.. أو تسقط فوق الأشواك!

★ أتشكين في قدرتي وفني.. وقد رتبت الأمر في ذهني؟..

- وماذا عن هذا الأمر وماذا عني؟

★ سأقفز بكل شجاعة.. وأنت ستضعين على الأرض بكل براعة.. وسائد من ريش النعام.. بشرط ألا تثير الاهتمام.. وعليك أن تجمعي الدجاجات الغبية.. وتبلغيها بما عقدتُ عليه النية.. فالديك سيقفز من أعلى سور.. محتجاً على إنفلونزا الطيور.

- هذه فكرة رائعة.. وأتوقع أن تعيد لك شعبيتك الضائعة.. ولكن حاول ألا تتهور.. حتى لا يتعكر مزاجي أو يتكدر.. وأرجوك أن تتذكر.. أن الدجاج يبيض الآن بدون مزاج.. وكأنه ليس سعيداً بالزواج.. وأنا أرى أن الأمر خطير.. وعليك بإصلاحه حتى تفلت من سوء المصير.

★ يا دجاجة روحي وقلبي.. إن الذنب فيما يجري ليس ذنبي.. إنه من غلامات العولمة.. حيث يكره كل توأم توأمه.. ويتعامل معه لكن دون أن يرحمه.. ولا بأس من أن يخدعه.. إذا لم يستطع بالطبع أن يقنعه.

أثناء الحديث بين الدجاجة والديك في الخفاء.. عاد الديك مرة أخرى إلى الإغماء.. بينما اصطحبت الدجاجة المتهورة ديكاً شاباً وصعدت معه إلى السطح.. ربما ليبشر بميلاد الصبح.. وهنا تأكد المجنون أن الأرض الخراب.. يمكن أن تصبح جنات من تين وأعناب.. ويمكن أن تحتضن الأحباب.. من المجانين والعقلاء.. على حد سواء:

دجاج الحمى.. يا دجاج الحمى
هو الصبح وعد بان تنعما
هي الأرض ليست لديك وحيد
يحب التقوقع كي يسلما
ويبقى يذل الدجاج ويخفي
جمال الحقول ونور السنما
هي الأرض خيراتها للجميع
وليست لمن عاش مستسلما
إذا ما أطال الربيع المكوث
مللنا وضقنا بما قدما
فكيف إذا ما الخريف أناخ
وشاخ فباخ وأهدى العمى؟

obeikandl.com

١٦

خروف يؤكد للمجنون أنه ضحية ومجلس الأمن قد ينظر في القضية

قبل أن يدق عيد الأضحى على الأبواب.. ليقوم بتحريض الأولاد والشباب.. على ارتداء أفخر الثياب.. خرج المجنون في المساء كي يتجول.. وبين بيوت فريج السد في الدوحة أخذ يتمهل.. حيث اندهش وهو يلاحظ حركات غريبة.. تدعو للشك والريبة.. فقد رأى رجالاً كثيرين.. يتحركون متباهين.. بما يحملونه من سكاكين.. وقد ارتدوا أحذية مستطيلة.. وكأنهم يتأهبون لحرب طويلة.. تتدفق خلالها شلالات الدماء.. بعد أن يتغلب الأقوياء على الضعفاء.

اقترب المجنون من مجلس صديقه محمد بن خليفة العطية.. وهو شاعر يكتب قصائد كالأزهار البهية.. لكن طبيعته السخية.. تدفعه دوماً لتقديم ضحية تلو ضحية.. ورأى المجنون بعينيه عدة خرفان.. تحاول التسلل من أحد الجدران.. بينما خلع خروف مرتعد وملهوف.. ما يكتسي به من الصوف.. حتى يكون الهروب بشكل أسرع.. إذا أحس بأنه قد يُخدع.. وبينما كان المجنون يتابع الموقف بعينيه.. تسللت فجأة إلى أذنيه.. أغنية جميلة من أغاني محمد عبد الوهاب.. فيها حنين واشتياق للأحباب.. بعد أن تركوه يشرب من كأس السراب.. لكن المجنون لاحظ أن الكلمات.. قد تغيرت عما كانت عليه في الزمن الذي فات.. وهكذا ترقرقت كلمات «عندما يأتي المساء».. وترددت ألحانها في الفضاء:

«عنـــدما يـــأتي المســـاء» وفـــريج الســـد يســـهر
تهـــرب الخرفـــان خوفـــاً مـــن أيـــاد تتنمـــر
تخلـــع الصـــوف وتجـــري بقـــرون تتكســـر
مأمـــآت تتلاشـــى وضـــحايا تتكـــور
ليـــة تســـكب دمعـــاً بـــين ســـكين وخنجـــر
بعـــد أن عاشـــت زمانـــاً في المراعـــي تتبختـــر
تمضـــغ العشـــب وتبقـــى في اجتـــرار يتكـــرر
وتظـــن العـــيش لهـــواً ومياـــه البئـــر كـــوثر
فجـــأة يقبـــل يـــوم فيـــه تنقـــاد لتنحـــر
ولهـــذا يتبـــارى كـــل جـــزار تشـــمر
آه مـــن ســـهم مواشـــي عنـــدما يعلـــو ويـــزأر

قرر المجنون أن يعود من حيث جاء.. بعد أن تمهل ليستمع إلى «عندما يأتي المساء».. لكنه فوجئ باقتراب خروف.. يمأمئ بصوت متهدج وملهوف:

★ لماذا تعتبروننا دائماً ضحايا.. وتحاصرون أجسادنا في كل الزوايا.. حيث نتعرض للنحر وللقتل.. قل لي.. أيرضيك هذا الفعل؟

- يا سيدي الخروف.. هذا أمر مألوف.. يتعرض له جميع الضعفاء.. من جانب المتجبرين الأقوياء.. ولا فرق في هذه الحالة بين بني الإنسان.. وحشود الأرانب والدجاج والخرفان.

★ لماذا إذن تقولون بأصوات مزهوة.. إن الحق فوق القوة؟

- هذا مجرد كلام.. أيها الخروف الهمام!

★ ألا يحق لخروف مثلي أن يعترض؟

- لا يحق لك حتى أن تمتعض.

★ ولماذا لا تقنعون بأكل النباتات.. حتى تنعم بالحياة كل الحيوانات.. ويعيش الكل في سلام.. وهم يتغنون بالأخوة والوئام؟

- ألا تعلم أيها الخروف أن القمح لم يعد يكفي البشرية.. وأنه يكاد يصبح كالعملة النادرة الأثرية؟

★ وما ذنبي أنا وسائر الإخوان.. من حشود الخرفان؟

- لستم وحدكم الذين تحل بكم الفواجع.. فهناك من يأكلون الضفادع.. وهناك من يحبون «الباجة» و«الكوارع».. وهناك من يأكلون القرود والكلاب.. والأمر لا يدعو لأي استغراب.

★ أليست هناك منظمات للدفاع عن حقوق الحيوان؟

- هناك منظمات لحقوق الإنسان.. وهو كما تعلم من جنس الحيوان.

★ أنت تغالط أيها المجنون.. وقبل أن أتعرض لسكين مسنون.. أريد التحدث مع مجلس الأمن بالتليفون.. لكي أحتج على هذا الأمر.. عسانا ننجو من الذبح والنحر.

- صدقني أني متعاطف معك.. لكني لا أريد أن أخدعك.. إن كثيرين من الناس.. من مختلف العقائد والأجناس.. يحبون لحم الضأن.. ومن بينهم أعضاء مجلس الأمن.. ولهذا فإن شكواك لن تفيد.. فضلاً عن أن التليفونات دائماً مشغولة في العيد.

انصرف المجنون وهو مشغول البال.. بعد أن تأثر بشكوى الخروف من الأهوال.. وأحس بوخز في الضمير.. لأن الخروف الذي اشتكى له قد بتعرض لسوء المصير.. وهكذا قرر المجنون إرسال رسالة.. دون استفاضة أو إطالة.. وعلى الفور انطلقت الرسالة لصديقه الشاعر.. لأنه -بكرمه- يشارك في ارتكاب المجازر:

يا محمدْ - بن خليفة - العطية
كيف تسعدْ - دون خيفة - بالضحية
هاهي الخرفان تشكوك إليه
جاء جزارون كثر في العشية

أبعـــدوها عـــن مـــراع سندســـية
نحروهـــــا بســـــكاكين قويـــــة
وشـــووها فـــوق نـــار في العشـــية
فاســـــتحالت لفتاتيـــــت طريـــــة
مـــع مكبـــوس وأطبـــاق شـــهية
وعـــدت في مجلـــس الأمـــن قضـــية

obeikandl.com

١٧

الخروف يرتاح من التفكير .. بعد أن قرر التحول إلى خنزير

عاد المجنون من جولته الحزينة.. بعد أن زلزلت مأمآت الخروف ما كان في قلبه من سكينة.. وهكذا أسند يده على الخد.. متفكراً فيما رآه في فريج السد.. وفجأة دق جرس الباب بعنف.. فقام ليفتح لمن تصور أنه ضيف.. وإذا به يجد الخروف أمامه.. وهو يرتعش مما يتخيل أنه يوم القيامة.. ودخل الخروف البيت على الفور.. غير مصدق أنه قد نجا من النحر.. أما المجنون فقد قام بواجبات الضيافة.. بينما كان يسأل الخروف عما أخافه.. ويحاول أن يبعد عنه القلق.. لأنه لا يجلب لصاحبه إلا الأرق.

★ قل لي أيها الخروف المسكين.. يا من نجوت من السكين.. ماذا تحب الآن أن ترتشف.. حتى لا تظل هكذا ترتجف.. عندي أنواع مختلفة من العصير.. وعندي شراب الشعير.. ومن الممكن أن أعد لك فنجاناً من القهوة.. يغمرك بعد شربه بالنشوة.. أما أنا فأحب شرب الشاي بالنعناع.. وعندي منه عدة أنواع.

★ هل تظن يا مجنون أني أشرب هذه الأشياء؟.. أنا وإخواني لا نشرب غير الماء.. ونحن لا نطمع أبداً في سواه.. لأن الماء جوهر الحياة.. أما أنتم فلا تقنعون.. ودائماً أراكم تطمعون..فمنكم من يشرب الخمور.. ويتصور إنها تجعله في غاية الانشراح والسرور.. ومنكم من يشرب الحشيش والأفيون.. لكي

ينسى ما كان وما قد يكون.. وباختصار شديد.. أنتم لا تقنعون بما يفيد.. بل تطمعون حتى فيما تعرفون أنه قد يبيد.

★ أيها الخروف عليك بالاحتراس.. فأنت الآن تهاجم كل الناس.. حاول أن تكون دبلوماسياً في اللغة.. وأن تعبر عما تقوله بأشكال مراوغة.

- أنا أعرف الباطل كما أعرف الحق.. لكني لا أحب غير الصدق.

★ الصدق يكلفك حياتك.. فإذا كنت تريد نجاتك.. فما عليك إلا بالكذب والبهتان.. وبهذا تنجو من قبضة الطغيان.. وتضمن ألا يتمزق جسمك بالأنياب وبالأسنان.. وعليك أيضاً أيها الخروف أن تتمسكن.. وتظل هكذا إلى أن تتمكن.. ويمكنك أيضاً أن تتعلم من الحرباء.. حيث تتلون دون إبطاء.

فجأة تكدر مزاج الخروف وتعكر.. عندما تخيل أنه يسمع أسداً يزأر.. والحقيقة أنه لم يكن هناك أسد.. بل لم يكن مع المجنون والخروف أحد.. وكل ما في الأمر أن الموبيل كان يرن.. وهو يتحرك كالنحلة حين تطن.. لقد تلقى المجنون رسالة.. فانطلق ليقرأها في عجالة.. وإذا بالرسالة من الشاعر محمد بن خليفة العطية.. يطالب فيها المجنون بنحر الضحية:

«أيها المجنون ما جدوى القضية

بعد أن تقضي على الكبش المنية

إنما كبشك قربان طليق

فاشحذ السكين وانحره هدية

ودع اللغو مع الكبش فإن

اللغو لا يمنع أقدار الضحية»

قال الخروف للمجنون بعد أن قرأ ما قرأ.. أرجوك ألا تخفي عني ما تلقيته من نبأ.. أرجوك أن تخبرني بما في الرسالة من مضمون.. تى لا تعصرني أفاعي الظنون.. ولأن المجنون يحب الصدق.. ولا يقول غير الحق.. فإنه لم يتهرب من المسؤولية.. وقال للخروف إن الرسالة تحريضية.. وإنها موجهة ضده هو بالذات.. وتطالب بتحويل

جسده إلى فتات.

أحس المجنون بقدر من الحرج.. بعد أن أخذ الخروف ينشج ويتشنج.. وهو يقول بصوت محزون.. وماذا أنت فاعل بي يا مجنون؟.. إني سأعترف لك طول العمر بالفضل.. إذا أعفيتني من النحر والقتل.. ألا يكفي أن صديقك الشاعر.. قد ارتكب ضد إخواني المجازر.. كأني أشهد الآن ما يدور.. دماؤها تسيل بينما يتجمع الأولاد حولنا في فرح وسرور:

حشود من خراف في الليالي
تساق إلى المجازر بالحبال
رماها النحر للجزار ظلماً
وما من منقذ شهم يبالي
وهمت بالسكاكين الأيادي
لمعركة تدور بلا قتال
فصرت إذا تمشي الناس قربي
تزاحمت الوساوس في خيالي

أوشك المجنون على البكاء.. بعد أن استمع إلى أبيات رثاء.. يقولها خروف مسكين.. نجا من بطش السكاكين.. لكنه يشعر بالأسى والحزن.. على ما جرى لإخوانه الذين أصبحوا لحوم ضأن.. يستمتع بأكلها معظم أعضاء مجلس الأمن.. وبعد أن طال تفكير الخروف.. تجاه ما يواجهه من ظروف.. ارتاح أخيراً إلى قرار.. يتكفل بأن يعيد للونه الازدهار.. وهنا قال الخروف للمجنون.. أنا أعرف أن الناس هنا مسلمون.. لهذا أرجو أن تساعدني في أن أتحول من خروف إلى خنزير.. لأرتاح من عناء التفكير.. وإن كنت لا أضمن في المستقبل.. ألا أصاب في مقتل.. وبعد أن تم للخروف ما يشاء.. نظر إليه المجنون باستياء. وقال له عليك الآن أن تغادر البيت.. دون أن يصدر منك أي صوت.. ودون أن تحتج لأحد.. وإلا قدمتك طعاماً سائغاً للأسد!

obeikandl.com

١٨

الخروف يتجلى في هيئة بقرة.. ولم يعد أحد يقتفي أثره

نجا الخروف من السكاكين والسواطير.. بعد أن استطاع التحول إلى خنزير.. لكن فرحته بنجاته لم تدم أكثر من ساعة.. حيث عاد لبيت المجنون بروح مرتاعة.. وخفقات قلب ملتاعة.. من فرط ما استبد به من هلع.. بعد أن نظر له أحد جيران المجنون نظرة طمع.. وحاول أن يربطه بحبل متين.. بعد أن تصور الجار أنه أمام خنزير سمين.. وأنه من الممكن تحويله إلى وليمة شهية.. يدعو لها أصدقاءه الذين يدينون بالمسيحية.

على الفور ضحك المجنون.. وهو يحاول أن يبعد عن الخروف عاصفة الظنون.. رغم أنه أدرك أن الأمر خطير.. لأن جاره «مستر سيمون» ممن يأكلون لحم الخنزير.. وظل المجنون ينظر بإشفاق للخروف.. لأنه يتعاطف مع الضعفاء في كل الظروف.. وتأكد المجنون أن الخروف.. بعد أن تغير شكله المألوف.. أصبح «كالمستجير من الرمضاء بالنار».. وأن الأمر لم يعد سراً من الأسرار.. فقد نجا الخروف من محاولات محمد بن خليفة العطية.. لأن يجعل من جسده ضحية.. وها هو «مستر سيمون» يريد أن يقدمه وليمة شهية.. منذ أن أصبحت ملامحه خنزيرية.

قدم المجنون للخروف بعض الأفكار.. بينما كانا مندمجين في الحوار.. وكان من بين المقترحات المقدمة.. أن يهرب الخروف

بصورة غامضة ومبهمة.. أو أن يرسل رسالة.. دون استفاضة أو إطالة.. إلى بعض القانونيين.. بشرط ألا يكونوا من المسلمين.. وألا يكونوا كذلك من المسيحيين.. وقد وافق الخروف على الاقتراح الأخير.. وأصبح لابد من حسن التدبير.. حيث سجل الخروف رسالة صوتية مؤثرة.. وراعى أن تكون مأمآتها واضحة ومعبرة.. وعلى الفور أرسل المجنون الرسالة لأحد أصدقائه الهندوس.. بشكل مرتب ومدروس.

لم يتمكن أحد في الهند.. من القيام بالرد.. على رسالة السيد الخروف.. رغم أنه شرح فيها ما يواجهه من ظروف.. ولا يرجع السبب إلى كسل الإداريين.. وما يتقيدون به عادة من روتين.. وإنما لأن الرسالة تضمنت مأمآت متداخلة.. ولهذا لم يستطع أحد ترجمتها ترجمة متكاملة.. خصوصاً أن مجموعة كبيرة من المأمآت.. لم يكن من السهل ترجمتها إلى كلمات.. توضح ما فيها من المعاني والدلالات.. ولم يقبل المترجمون هناك باللجوء إلى تخمينات.. قد توقعهم في متاهات.. وتضارب في التفسيرات.. مثلما يحدث أحياناً في قرارات مجلس الأمن.. من تلاعب وسوء ظن.. حيث تتحول كلمة «الأرض» إلى «أرض».. وتتحول «القُبلة» إلى «عض».. و«المقاومة» إلى «إرهاب».. و«تلاقي الأصحاب والأحباب».. إلى «مؤامرة تحاك داخل سرداب».

ضاق الخروف بأوجاع الانتظار.. فقرر أن يلجأ للانتحار.. لكن المجنون وبخه بعنف.. وهدده بحرمانه من حق الضيف.. وقال له بوضوح وجلاء.. إن الانتحار وسيلة الجبناء.. حين يصيقون بما يتحملون من الأعباء.. وبينما كان المجنون يتحدث.. دون أن يتمهل أو يتريث.. سقط من يده القمقم النحاس.. فارتعب الخروف واحتبست فيه الأنفاس.. بعد أن خرج المارد من القمقم.. وأخذ يتمتم.. وبالطبع فإن المجنون لم يتلعثم.. بل إنه أصدر للمارد أمراً.. وطلب منه أن يقوم بتنفيذه فوراً.

★ أرجو أن تحول هذا الخنزير إلى بقرة.. حتى لا يستطيع أحد أن يقتفي أثره.

– هذا أمر سهل.. لكنا لو رجعنا للأصل.. سنجد أن الخنزير الذي يبدو أمامي.. كان خروفاً خاف من مصيره الدامي.. بعد أن توعده صديقك محمد بن خليفة العطية.. بأن يحول جسمه إلى ضحية.. ولم ينقذه من هذا المصير.. إلا تحوله إلى خنزير.. إلى أن واجهه جارك «سيمون» بتهديد خطير.. والآن فإني أسألك لماذا طلبت ما طلبت.. رغم أنك قد كذبت؟

★ لم أكن أعرف أنك تعرف!

- لا تكذب مرة أخرى.. وإلا فلن ألبي لك أمراً.. وعلى أي حال فإني الآن.. سأجعل هذا الذي ينتمي للخرفان.. يتجلى في هيئة بقرة.. حتى لا يقتفي صديقك الشاعر أثره.. وسأحمله دون أي جهد.. وأتركه على ضفة نهر السند.. في بلاد الهند.

★ هذه فكرة جميلة.. وعليك بتنفيذها بما لديك من حيلة.

بعد أن تم التحول من حال إلى حال.. ولم تعد هناك مخاطر أو أهوال.. اتفق الجميع على عدم إفشاء السر.. وهذا ما نفذوه على الفور.. وكانت البداية عندما رن التليفون.. في بيت المجنون.. وكان المتكلم هو الشاعر محمد بن خليفة العطية.. يسأل: هل تم نحر الضحية.. فأنكر المجنون احتضانه لأي خروف.. في أي ظرف من الظروف.. وقال بصوت هادئ وماكر.. وهو يرد على صديقه الشاعر:

عاش الخروف فأحرج الجزار
وتذبذبت في البورصة الأسعار
فاهرب - فديتك - من خروف جامح
يرعى.. وقد خدعت به الأبصار
إن الطريق إلى الخروف محير
وهو الذي تحلو له الأسفار
حيناً هو الخنزير يجتاز المدى
وتراه- حيناً - أهله أبقار
والأرض تشهد للخروف بأنه
متيقظ.. وقرونه إصرار
هو في المراعي يرتوي من نبعها
يحمي خطاه المارد الجبار
وبقلبه شوق إلى دنيا بلا
قتل.. وليس يسوسها إعصار

ويـــث للمجنـــون مأمـــاة الهـــوى

إن عطـــرت أنفاســـه الأزهـــار

ويقول: إن ضـمائر النـاس اكتسـت

صـــــدأ وإن قلـــوبهم أحجـــار

مـــا للعطيـــة يقتفـــي أثـــراً لمـــن

غابـــت رؤاه ولم يعـــد يحتـــار

ويظل يبحث عن خـُروف قـد نـأى

في عـــالم..ســـقطت بـــه الأســـوار

إن الخـِروف وقـد نجـا متخفيـاً

تحميـــه أشـــجار لهـــا أســـرار

١٩

الخروف يتحول لطاغية .. وا لمجنون يهدد بإلقائه في هاوية

تجلى الخروف للهندوس في هيئة بقرة.. وجلس متمدداً تحت ظل أقدم شجرة.. وبعد أن كانت تلاحقه السكاكين.. أصبح يتلقى الهدايا والقرابين.. من الناس الذين يتقربون إليه. ويسعون لأن تكون لهم حظوة لديه.. أو يباركهم بنظرة من عينيه.. وتجمعت حوله حشود من المشعوذين.. وجموع من أصحاب المصالح والمنتفعين.. وأخذ الفقراء يركعون أمامه بخشوع.. ويوقدون أنواعاً متنوعة من الشموع.. وقد ترقرقت من مآقيهم الدموع.

بعد أن اطمأن الخروف أن أحداً لن يجرؤ على أن يقتفي أثره.. منذ أن تجلى على يد المارد في هيئة بقرة.. أخذت طبيعته تتغير.. وبدأ يتكبر ويتجبر.. بل إنه أخذ يرفض بعض القرابين.. بحجة أنه لم يعجب بأصحابها المساكين.. أو أن ملابسهم تبدو رثة وممزقة.. أو لأن توسلاتهم إليه ليست منمقة.. وظل الخروف سعيداً بما وصل إليه الحال.. خصوصاً بعد أن تكدست حوله الأموال.. لكن تفكيره في المستقبل.. وخشيته من أن يصاب في مقتل.. أو أن يتعرض لمحاولة اغتيال.. أو للنصب والاحتيال.. كلها أمور جعلته يحتاط ويتدبر.. ويمعن في التفكير أكثر وأكثر.. وهكذا طلب من بعض أفراد الحاشية.. أن يسافروا سراً إلى أحد البلدان النائية.. لكي يضعوا أمواله في بنوكها.. ويعودوا إليه بمستنداتها

وصكوكها.. ولكي يتم الأمر بمنتهى السرية.. اقترح الخروف وضع الأموال في البنوك السويسرية.. بشرط أن ترسل إليه الفوائد.. لكي يقيم بها أفخر الموائد.. لمن يتجمعون حوله من المشعوذين.. وبعض أصحاب المصالح والمنتفعين.. ولا بأس من إطعام بعض المساكين.. خصوصاً ممن يتقربون إليه بأغلى القرابين.. وتذكر الخروف – وهو يضحك – قول أحد الشعراء.. ممن أكدوا أن البسطاء..هم أنفسهم الذين يصنعون ما يلاقونه من بلاء.. لأنهم دائماً يألهون الحكام.. حتى لو حكموا عليهم جميعاً بالإعدام.. كما أنهم لا يثورون ضد الظلم.. وهذا ما يجعله يزداد يوماً بعد يوم.

يسكت الخانع الذليل فيعرى
ويطول السكوت دهراً فدهرا
فتظل الشفاه تلعق طيناً
ويذوق الجياع بؤساً وقهرا
بينما تلهو طغمة في الليالي
بمصير الشعوب ظلماً وعهرا
«كل قوم خالقو نيرونهم
قيصر قيل له أم قيل كسرى»

هكذا تحول الخروف إلى طاغية.. وأصبح ينظر نظرة متعالية.. إلى أنواع عديدة من الحيوانات.. وإلى الخرفان بالذات.. كأنه يريد أن ينسى أصله القديم.. وكيف أنه كاد يواجه مصيره الأليم.. عندما حاول محمد بن خليفة العطية.. أن يجعله ضحية.. وأن يقدمه لضيوفه وليمة شهية.. وعندما رآه مستر «سيمون» جار المجنون.. فتصور أنه خنزير بالشحم مسكون.. وأن جسمه السمين.. يصلح وليمة لأصدقائه المسيحيين.

كان لابد أن يتصل المجنون.. بهذا الخروف الذي تحول إلى طاغية ملعون.. ونسي ما كان ينتمي إليه في الأصل..وتصور إنه قد نجا تماماً من القتل.. بعد أن تجلى للهندوس.. بقرة تقام لها الطقوس.. وتتلقى ما تتلقى من قرابين.. وتستنشق البخور

والفل والياسمين.. وبالفعل فإن المجنون إتصل بالخروف.. لكي يضع أمامه النقاط على الحروف:

★ آلو.. ماذا تفعل أيها الخروف؟

– من أنت يا من تكلمني.. يبدو أنك واحد يريد أن يزعجني!

★ أنا المجنون.. أنسيت صوتي أيها الملعون؟

– أؤكد لك يا مجنون الآتي.. إني لست خروفاً من الخرفان.. وإن كنت أعترف بأني كنت كذلك أيام زمان.

★ وما الذي حولك من خروف إلى طاغية؟

– بمجرد أن رآني الناس بقرة زاهية.. ركعوا أمامي في أقل من ثانية..ولا تنس أني أعمل بنصيحتك الغالية.. ألم تقل لي أنت..وبأعلى ما لديك من صوت.. لابد أن أتمسكن.. حتى أتمكن؟

★ .. ولماذا أصبحت تتنكر لأصلك؟

– هذا ليس من شغلك!

★ لا تجعلني أتهمك بالخسة والوضاعة.. بعد أن كنت في غاية الوداعة.

– وأنا لن أسمح لمجنون مثلك أن يتبجح.. وإلى متى سأظل أشرح.. دون أن تستوعب ما أقول.. عن إذنك فعندي الآن جولة تفقدية للحقول.

اغتاظ المجنون بشدة.. عندما أغلق الخروف السماعة بحدة.. ولما استبد بالمجنون الغضب.. حاول أن يهديء نفسه بأكل عنقود من العنب.. متمنياً لو كان قد ترك الخروف يروح ضحية.. على يد صديقه محمد بن خليفة العطية.. أو على يد جاره الذي يدين بالمسيحية.

قام المجنون باستدعاء المارد من القمقم.. فوقف أمامه يتمتم ويغمغم.. وخيَّره المجنون بين أحد اقتراحين.. إما أن يأتيه بالخروف في غمضة عين.. لكي يحوله بنفسه إلى كفتة وكباب.. وإما أن يهدده بأقسى عقاب.. بعد أن تحول من خروف إلى طاغية.. ينظر لمن حوله نظرة متألهة متباهية.. وحين تساءل المارد عن نوع العقاب.. قال له

المجنون: سأريه العجب العجاب.. وإذا كان قد تجلى للهندوس في هيئة بقرة.. ويظن أن أحداً لن يقتفي أثره.. وإذا كان قد أصبح طاغية.. فإني سأهدده بإلقائه في هاوية.. اذهب الآن أيها المارد إليه.. ولا تلق السلام عليه.. وإنما عليك أن تحمل له مرض «جنون البقر».. حتى لا يبقى منه أثر.

obeikandl.com

٢٠

المجنون يؤكد عدم وجود البطيخ .. على سطح كوكب المريخ

يفرِّقُ المجنون بين العلم واستغلال العلم.. فهو يعرف أن العلم في حد ذاته مهم.. أما استغلاله فإنه قد يفيد.. كما أنه قد يبيد.. والأمر يتوقف على ما في قلوبنا من خير.. أو ما تنطوي عليه من شر فالذين لديهم مفاعلات نووية.. يمكنهم أن يقدموا الخير للبشرية.. إذا استخدموها في أغراض سلمية.. كما يمكنهم أن يدمروا الحياة.. إذا استخدموها بعقلية المجرمين الطغاة.. وهذا ما جرى عندما ألقى الأمريكان.. قنبلتين ذريتين على مدينتين من مدن اليابان.. فانهار ما انهار من العمران.. واختلطت أشلاء الإنسان بالحيوان.. ومثل هذا أكده «رهين المحبسين».. حين قال وهو يبكي من القلب لا من العينين:

«يسوسون الأمور بغير عقل

وينفذ أمرهم.. فيقال: ساسة

فأف من الحياة وأف مني

ومن زمن رياسته خساسة»

تحركت في عقل المجنون.. عاصفة هوجاء من الظنون.. بعد أن أدرك أن الذين يتحكمون في مصائر الشعوب.. ويستفيدون من إشعال نار الحروب.. قد كلفوا كثيرين من العلماء.. بأن يقوموا دون إبطاء.. بالتجسس على كوكب غامض بعيد.. وأن يقدموا لهم

ما هو مفيد بشأن كل ما يتعلق بهذا الكوكب الأحمر.. حتى يتسنى لهم أن ينقضوا عليه وأن يُستعمر.. وأخذ المجنون يتذكر.. أن العلماء حين وصلوا إلى القمر.. قد أفسدوا جماله على البشر.. ولم يعد أي واحد من الشعراء.. يصف وجه حبيبته بأنه قمر قد أضاء.. خصوصاً بعد أن أكد العلماء أن القمر مليء بالحجارة.. وليس فيه ما يدعو للدهشة والإثارة.. فضلاً عن أنه يسرق أنواره.. من الشمس التي تتأجج بالحرارة.

استبد بالمجنون فضول.. دفعه أن يفكر في الوصول.. إلى الكوكب الأحمر المدعو بـ«المريخ».. وأخذ يتخيل أنه مزروع بالبطيخ.. وأن الذين يسكنون فيه شيوعيون.. أو أناس مهووسون ودمويون.. طالما أن كل ما يبدو على هذا المريخ أحمر.. وأن هذا اللون هو وحده الذي يظهر.. ورأى المجنون أن يسافر دون إعلان.. حتى لا يسخر منه الأصدقاء والجيران.. وهذا ما كان.. حيث اتفق مع المارد المطيع.. على السفر إلى المريخ في بداية الربيع.. وانطلق الإثنان على بساط الريح.. بعد أن تأكدا أنه لا يحتاج لتصليح، وأخذ المجنون معه اسطوانة أوكسجين.. وعلبة بانادول وأسبرين.. وعدة أنواع من السكاكين.. حتى يتسنى له تقطيع البطيخ.. عندما يعثر عليه فوق سطح المريخ.

اطمأن المجنون في المرحلة الأولى من الرحلة.. فتصور أن المسألة سهلة.. لكن الأمور أخذت تتعقد.. فكادت عروقه من الرعب تتجمد.. ومن جديد عصفت به الظنون.. بينما كان ينفذ من ثقب «الأوزون».. حيث تراءى له الفضاء.. ظلمات تمتد بلا انتهاء.. لدرجة أن المارد نفسه ارتعد.. وقال للمجنون: فلنعد.. فإن ما تقوم به ليس مغامرة.. ولكنه أشبه بالمقامرة.

★★ أيها المارد العملاق.. ألم تكن تفخر دائماً بارتياد الآفاق؟

- هذا صحيح.. لكني أحس الآن كأني كسيح!

★ وأنا أحس أني بلا حراك.. بل إني لا أراك.. ومع هذا فعلينا أن نتسلح بالأمل.. فالناس أمثالي يقولون: «من جد.. وصل»

- إذن.. دعني أدهن وجهك ووجهي بالفوسفور.. مادامت الظلمات لا تشرق فيها ومضة نور.

.. بمجرد اكتمال الدهان.. بدأ المارد والمجنون يلمعان.. وأحس المجنون بالراحة والاطمئنان.. فأخذ يقهقه بغير انقطاع.. وهو يفكر فيما لدى الناس من حب استطلاع.

★ لماذا تضحك هكذا يا مجنون؟

- لأني أصبحت بعيداً عن الأرض.. بكل ما فيها من حقد وبغض.

★ لكني أعتقد أن هذا ليس السبب.

- «لو عرف السبب.. بطل العجب.. إني أضحك لأن علماء الكرة الأرضية.. سيتحدثون الآن عن كشوف علمية..وبالتأكيد فإنهم سيؤكدون اكتشاف كوكبين صغيرين.. لا يمكن أن يراهما أحد بمجرد العين.. وإنما بأحدث ما توصل إليه العلم.

★ وماذا يمكن أن يحدث؟

- بعد أن يعلن العلماء عما اكتشفوه.. ويتباهوا بما قد عرفوه.. سيتجمع الصحفيون والإعلاميون.. كما أن شاشات التلفزيون.. ستظل تتحدث وتشير.. إلى النبأ العاجل المثير.. اكتشاف كوكبين صغيرين.. يبدوان متجاورين ومشعين!.

★ وأين هما هذان الكوكبان؟

- يبدو أنك لا تعرف طبائع الناس.. من مختلف الأجناس.. إنهم جميعاً يحبون كل ما هو مثير.. ويتناقلونه على الأرض وفي الأثير.

★ لا أفهم شيئاً أيها المجنون.

- سأشرح لك الآن.. إن علماء الأرض سيقولون بكل اطمئنان.. إن العلم في خدمة الإنسان.. بينما سيفرح الذين يتحكمون في مصائر الشعوب.. ويستفيدون من إشعال نار الحروب.. أما الحقيقة التي لا يعرفها الناس.. فهي أن الاكتشاف بغير أساس.. فأنا وأنت أيها المارد العملاق.. نبدو للعلماء عبر الآفاق.. وبعد أن أصبحنا بالفوسفور مشعين.. نبدو في هيئة كوكبين صغيرين.. متجاورين ومتآلفين!.

obeikandl.com

٢١

الروبوت يتنفس ... والمجنون يتجسس .. والمارد يتحمس

وصل المجنون بصحبة المارد.. إلى الكوكب الأحمر الخامد.. بعد أن ذاقا ما ذاقا من السهاد.. وبدا على كل منهما الإجهاد.. حيث قعدا على أرض المريخ وهما يلهثان.. وإن كانا بالطبع لا يدريان.. بأنهما قد أصبحا حديث أهل الأرض.. ذات الطول والعرض.. منذ أن تنافست وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.. والعديد من القنوات الفضائية.. وقطعت برامجها المألوفة العادية.. لكي تنقل الخبر العاجل الخطير.. بأسلوب فجائي مثير.. والحقيقة أن كل ما قيل.. هو مجرد وهم من أوهام الأباطيل.

«تلقينا في اللحظة والتو.. خبراً لا يتحمل النسيان أو السهو.. حيث علمنا أن النجمين الساطعين.. أو الكوكبين الصغيرين اللامعين.. قد سقطا على سطح المريخ متجاورين.. دون أن ينتج عن سقوطهما دمار.. ودون أن يلمح علماء الفضاء وميض انفجار.. وما زال العلماء يحاولون كشف المستور.. لكنهم يؤكدون أن «الروبوت» المحصور.. ما يزال يعمل بكل حيوية.. كما إنه يرسل إشاراته الرمزية.. إلى مركز الاتصالات الأرضية.. ومحطة «اناناسا» الفضائية..».

لم يهتم الحفاة والجائعون والكادحون.. بما بثته على الهواء مباشرة قنوات التلفزيون.. لأنهم لا يلهثون إلا وراء لقمة العيش..

ولا يعنيهم أمر الذين يتصارعون على أي عرش.. أما الإمبراطور «بووسواس».. الذي يحاول التحكم في كل الناس.. فإنه طالب جميع العلماء.. ممن يعملون في وكالة الفضاء.. بأن يكشفوا له ما جرى على الفور.. قبل أنْ يتوصل المارقون إلى معرفة السر.. وقد وعدهم «بووسواس» بأن يدعوهم لأفخر مائدة.. إذا نجحوا في ستخلاص الاستثناء من القاعدة.. وإلا فإنه سيعتبرهم ناساً بلا فائدة.

بعد أن ارتاح المجنون وأفاق.. لم يعد يشعر بالضيق والاختناق.. خصوصاً بعد أن ابتلع قرص أسبرين.. وفتح المارد له أسطوانة الأوكسجين.. لكن المجنون أحس بأنه أصبح خفيف الوزن.. فقال لنفسه: الآن لم يعد لي أي شأن.. أحس أني مجرد ذرة تائهة في الكون.. واقترب المارد منه في الحال.. وانحنى قليلاً ثم قال:

★ إني لا أرى إنساناً واحداً قد قنع.. فالكل يحب الطمع.. والأقوياء دائماً ينهبون ما لدى الضعفاء.. وهذا سر الداء وأصل البلاء.. لأن الطمع يجعلهم في حالة عناء.. ليس لها حد ولا انتهاء.

- أيها المارد العملاق.. إني دائماً مشتاق.. لأن يسود العدل في الأرض.. حتى تتلاشى أشباح البغض.. لكن الناس فعلاً لا يعرفون القناعة.. وأخشى أن يستمروا هكذا إلى قيام الساعة.. ولهذا أكد «رهين المحبسين» أبو العلاء.. أن الصخور أفضل منهم جميعاً بغير استثناء:

«ما فيهم بَرٌّ ولا ناسكٌ

إلا إلى نفع له يُجذبُ

أفضل من أفضلهم صخرة

لا تظلم الناس ولا تكذبُ»

والآن قل لي أيها المارد.. لماذا أنت قاعد.. علينا أن ننهض لكي نتجول.. وأن نتمهل حتى نتأمل.. وإن كنت أشعر بأني لن أجد البطيخ.. فوق سطح هذا المريخ.

لمح المجنون والمارد كائناً غريباً يلمع.. وبدا لهما كأنه رجل أصلع.. فانطلق الإثنان إليه على عجل.. يحدوهما الأمل.. في أن يعرفنا سر هذا الرجل.. وحين اقتربا منه تأكدا أنه «الروبوت».. وأنه يعمل في صمت وسكوت.. ويبدو أن «الروبوت» أحس باقتراب الاثنين.. لأنه رفع ما له من ذراعين.. كأنه يهديهما التحية.. بإحدى إشاراته

الرمزية.. وفجأة نطق «الروبوت» باللغة العربية:

★ قبل أن تلعب بكما الظنون.. أريد أن أخبركما عمن أكون.. أنا – في الحقيقة- اختراع غريب.. وأبدو في هيئة إنسان عجيب.. لكني مجرد آلة علمية.. من ابتكار علماء «أناناسا» الفضائية.. وهم يريدون مني اكتشاف أشياء كثيرة.. وأنا أعمل هنا بهمة كبيرة.. لكني حتى الآن لم أعثر على مياه.. تؤكد أنه كانت هنا حياة.

– وأنا أيها الروبوت جئت إلى المريخ.. متصوراً بأني سأكتشف على سطحه البطيخ!

★ أي بطيخ يا مجنون؟!.. إن الإمبراطور «بووسواس» يريد بناء السجون.. على سطح هذا الكوكب غير المسكون.. لأنه يعتقد أن معتقل «سجتا كامو» ليس كفاية.. هذا هو كل ما في الحكاية..

– وهل توافق أنت على هذا العمل؟

★ إني أتسلح بالأمل.. ولهذا أعمل دون ملل.

– أي عمل؟

★ أريد التمرد على كل الأوامر.. حتى أتصرف بعقل غير صاغر.. وهذا يعني أن أحقق لعقلي الاستقلال.. حتى تكون لي حرية في الأفعال.. لابد أن أتمرد على علماء الأناناس.. حتى أنقذ الناس.. من مكائد «بووسواس».

أكد «الروبوت» أنه تعلم كيف يتنفس.. بينما أخذ المجنون يحاول أن يتجسس.. ووقف المارد وهو يتحمس.. لكشف مكائد«بووسواس».. ضد جميع الناس.. وترددت على سطح الكوكب الأحمر الخامد.. أبيات قالها شاعر عربي خالد:

«إذا كان علم الناس ليس بنافع

ولا دافع.. فالخسر للعلماء

قضى الله فينا بالذي هو كائن

فتم.. وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه

فيخرج من أرض له وسماء؟»

obeikandl.com

٢٢

أهل المريخ .. يتعرضون للتوبيخ والدمار.. وراءه أسرار

بعد نفاد الصبر.. صرخ البحر.. إلى متى أحمل هذا الموج فوق الظهر.. على امتداد الدهر؟.. ليت هذا الموج يتبخر.. حتى يصفو بالي ولا أتكدر.. وبمجرد أن قال البحر ما قال.. تكدرت على الفور الأحوال.. حيث اجتاحت الموج عاصفة من غضب.. فاحتج وماج ثم احتجب.. فتحجرت في قاع البحر الأسماك.. والحياة أصبحت بلا حراك.. وتحول البحر إلى أرض مالحة.. تتراءى فيها صخور كالحة.. وها هو البحر يبدو كالأصلع.. ولم تعد الشمس فوقه تسطع.. إلا لتعلن أنه لم يعد ينفع.. وهكذا تحقق للبحر ما شاء.. أمنية حمقاء.. تكفلت بإخراجه من عالم الأحياء..

هذا ما أكده الروبوت.. وهو يطلق حمم حزنه المكبوت.. فارتعش المجنون أيما ارتعاش.. وفتح فمه في اندهاش.. محاولاً أن يتعرف على التفاصيل.. حتى يتأكد أن ما سمعه ليس أباطيل.

★ أيها الروبوت العجيب.. لا تدفعني للبكاء والنحيب.. أيُعقل أن يكون البحر في المريخ انتحر.. أيُعقل أنه من الغيظ انفجر؟

- أنت حر في أن تصدقني.. وحر في أن تكذبني.. فأنا روبوت ديمقراطي حقاً.. لكني لا أنطلق إلا صدقاً.

***

★ إني أحاول أن أفهم.. وأن أعلم ما لم أكن أعلم.. وأنت نفسك قلت لي من قبل.. إن سطح هذا المريخ معتل.. ولم تكن فيه حياة.. طالما أنه خال من المياه.

– لا تتسرع يا مجنون.. ولا تسئ بي الظنون.. اسمع الآن الحكاية. من بدئها لحد النهاية.. فكل ما حولك هنا من دمار.. وراءه أسرار خلفها أسرار.. وإني لأنتهز هذه الفرصة السانحة.. لأعبر عن سخطي بصورة واضحة.. إني أتوجه بأقسى عبارات التوبيخ.. لكل من سكنوا هنا في المريخ!

★ وأنا أقول لك إني لم أفهم؟

– عليك يا مجنون بالصبر.. حتى أوضح لك الأمر.. أليس على سطح الأرض الآن آدميون؟.. كذلك كان هنا في المريخ مريخيون.. وكانوا في البدء يحيون في حب.. إلى أن دفع الطمع أقواهم للسلب وللنهب.. فنشبت بينهم أكثر من حرب..و الجدب حل مكان الخصب.. وسقط من المريخيين قتلى وجرحى كثيرون.. ولم يعد الباقون يعشقون.. بعد أن صارت الكراهية هي البطل..وساندتها في دورها كل العلل.. فأصيب سطح المريخ بالخلل.. أما الموج فقد احمر من فيض الدم.. فاغتاظ البحر واغتم.. وأخيراً بعد نفاد الصبر.. صرخ البحر.. إلى متى أحمل هذا الموج فوق الظهر.

★ تكلم يا روبوت بصراحة.. ففي الصراحة راحة.. وبدلاً من هذا التلميح.. لماذا لا تتحدث بشكل صريح؟

– ولماذا أتكلم وحدي ولا يتكلم هذا المارد.. أليس له رأي فيما يجري وما هو سائد؟

.. التفت المجنون للمارد فوجده يبكي بلا انقطاع.. وفي عينيه نظرات حزن والتياع.. فسأله المجنون عما أصابه.. بينما قال الروبوت – مداعباً – لعله يتذكر أحبابه.. ولهذا نراه قد فقد صوابه.

نفض المارد عنه الحزن.. وقال: ما أجمل هذا الكون.. الفضاء أسراب من النجوم.. تشع فتزيح عن النفس الهموم.. لكن سر الداء وأصل البلاء.. يكمن في نفوس بعض

الأحياء.. ولهذا تنتصر الرذائل.. وتوشك أن تهدم بالمعاول.. أجمل ما في الأرواح من فضائل.. لقد جئنا أيها الروبوت من الأرض.. لنبعد قليلاً عما فيها من بغض.. فوجدناك تقوم بتوبيخ.. أرواح من راحوا من سكان المريخ.. ورأيناك تؤكد أن ما حولنا من دمار.. وراءه أسرار خلفها أسرار.

قال الروبوت على الفور: وأنا سأبوح لكما بسر.. إن المتجبرين من الآدميين.. يريدون أن يبنوا فوق المريخزنازين.. لأن زنازين الأرض لم تعد كافية.. رغم أن قتل السجناء يحدث في كل ثانية.. وأنا شخصياً سمعت الإمبراطور بووسواس.. يقول:ويل لكل الناس.. إنهم دائماً يقفون ضدي.. لكني أرفض أن أكون وحدي.. ولهذا سيبقى هنا معي الطيبون.. وليذهب إلى المريخ المارقون.. أعتقد أن هذا أفضل حل.. لأنه يجنبنا مزيداً من القتل.

★ وماذا ستفعل يا حضرة الروبوت؟

– قلت لك من قبل إني أتهيأ لأن أستقل بعقلي.. لكي أكون حراً في قولي وفي فعلي.. ولك أن تتوقع مني كل خير.. عندما أتغلب على عقول الشر.

قَبَّلَ المجنون رأس الروبوت الأصلع.. وتمنى له أن يكون الأروع والأبرع.. وأكد وهو يداعبه أن البقاء للأصلع.. أما المارد فقد قام بوضع مزيد من الفسفور.. فتألق هو والمجنون بسحر النور.. وانطلق الإثنان ببساط الريح.. على امتداد الفضاء الفسيح.. وفي الفضاء تذكر المجنون.. ما كان قد قاله ابن خلدون.. «الظلم مؤذن بخراب العمران».. ولا يسلم منه الإنسان.. إلا إذا تخلص من الطغيان.. وأخذ المجنون يستعيد حكاية البحر.. بعد أن نفد منه الصبر:

أيها البحر.. لماذا تتوارى

بعد أن كنت حصاناً لا يجارى

وجهك المخطوف تمثال بليد

موجك الآن رمال في صحارى

لم يعـــد فيـــك هـــدير يتـــوالى

مـــذ تملحـــت ضـــياعاً وانكســـارا

هـــا هـــو المـــريخ مصـــبوغ دمـــاء

أشـــبع الحقـــد أمانيهـــا دمـــارا

وعـــلى الأرض طغـــاة مـــا أحبـــوا

غيـــر قتـــل الحـــب لـــيلاً ونهـــارا

فـــانتفض يـــا مـــازد الخيـــر أبيـــاً

فالحيـــاة الآن تجتـــاز اختبـــارا

obeikandl.com

٢٣

زهرات الفل .. تتمايل في الليل .. على إيقاع صهيل الخيل

يعرف العقلاء أن الزهور لا تتفتح.. إلا حين يأتي الفجر بحصانه المجنح.. حيث يوقظها برفق وحنان.. فتجود بما لديها في أجواء المكان.. أما الذين لا ينامون.. ويظلون طول الليل يسهرون.. ومن بينهم المجنون.. فإنهم – أحياناً – يرون زهرات فل.. تتمايل في الليل.. على إيقاع صهيل الخيل.. وربما بكت منهن زهرة.. لكي تطلق ما في قلبها من حسرة.. وربما استسلمت أخرى لدوامة الحيرة.. لكن كلاً منهن تعود من جديد.. لكي تتظاهر أن قلبها سعيد. فتظل طول الليل تتأرجح.. بل إنها قد تترنح.. وهي تقدم أغلى ما لديها.. لكل من يأتي إليها.

ترقص الزهرات دوماً والصهيل.. يتعالى لكي يشفي الغليل.. ومن «الليدو» إلى «كازينو بديعة». يظل أمثال عمر بن أبي ربيعة.. يتفحصون جمال الزهرات.. ويتذوقون نبيذ الرغبات.. بينما ترقص الزهرات بسيقانهن العارية.. في ليالي المدن القريبة والنائية.. ولا مكان لمن تظل باكية.. فعلى كل زهرة أن تبدو زاهية.. وتتظاهر بأن روحها من الهم خالية.

انطلق أحد الشعراء العرب.. ممن يحبون اللهو والطرب.. حيث التقى مع زهرة فل ناعمة.. لكنه اكتشف في النهاية أن روحها واجمة.. خصوصاً أنها أخبرته بما تذوقته من المآسي.. ولأنقلب الشاعر لم يكن بالقاسي.. فإنه تضايق واكتأب.. وكتب عن تلك الزهرة ما كتب:

«جئتهـــا في ليلـــة فابتســـمت

بســمة تفتــر عــن حــر الشــهيق

ثــم قالــت: مرحبــاً يــا مرحبــا

بــأخي اللــذات أهــلاً بالعشــيق

هــا هــي الزهــرة يــا نحــل الهــوى

فاظفروا بالشهد وامتصوا الرحيق

واطرحوهـــا زهـــرة قـــد ذبلـــت

في ربيــع ناضــر غــض وريــق»

قارن المجنون بين هذا الشاعر الذي يحب السهر.. لكي يتذوق في الليل ما يحلو لـه من ثمر.. وبين شعراء آخرين يحبون الحذر.. ولا يسهرون في أي ملهى من الملاهـي.. وكأنهم يقولون: ياما تحت «الملاهي» دواهي.. وقـد التقـى المجنـون مـع شـاعر مـن هؤلاء.. فأكد له أنه ينام مباشرة بعد العشاء.. وإن كان يتقابـل مـع أصـدقائه الشـعراء.. حيث يختارون أحد المطاعم.. كي تفوز بطونهم بأشهى المغانم.. وقد أتيح للمجنـون أن يطلع على صورة.. تم التقاطها لهـؤلاء في مطعـم «النـافورة».. وعـلى الـرغم مـن أن الوجوه كانـت راضـية. فـإن المجنـون لاحـظ أن الأطبـاق خاويـة.. وأدرك أن هـؤلاء الأصدقاء لا يحبون زهرات الفل.. رغم أنها تتمايل بـالقرب مـنهم في الليـل.. وتحـب الرقص على إيقاع صهيل الخيل..

فشل المجنون في إقناع صديقه «بلال البدور».. بأن يجرب ولو مرة أن يـزور.. أحـد الملاهي الليلية.. لكي يستنشق أزهـار الفـل السـحرية.. أو يتبـين الفـرق بـين البيضـاء والسمراء والخمرية.. وعندما أدرك المجنون أنه قد فشل.. تـرك صـديقه عـلى عجـل.. وانصرف وهو يفكر في أحوال الناس.. فمنهم من يحب الاحتراس.. ويفضل النوم بعـد العشاء.. لكي يتوجه إلى عمله الصباحي دون إبطاء.. ومنهم من يحب السهر كما يشاء.. حيث يرقص مع زهرات الفل.. وهي تتمايل في الليل.. على إيقاع صهيل الخيل.. وأخذ المجنون يكتب عما يدور.. لكي يرسله لصديقه بلال البدور:

بـلال.. يـا أطيـب الأصـحاب في البلـد
وفي دبـي التـي تشـكو مـن الحسـد
إني شـــبعت مـــن الأشـــعار في ورق
لكـن بـلا طبـق قـد نمـت في كمـد
وهـــذه صـــور الأصـــحاب شـــاهدة
أن لم يـذوقوا سـوى وهـم بـلا جسـد
فاشـــبع بعينـــك والأطبـــاق فارغـــة
واشـرب مـن المـرق المكسـو بالزبـد
إن الغـــواني – إذا أحببـــت – ســـاهرة
في كل ملهى بقرب المطعم «الصفدي»
وإن وجـــدت نهـــود الغيـــد جامحـــة
«فـــلا تظـــنن أن» الغيـــد في رغـــد
فكـــل ســـاهرة مـــنهن حـــائرة
في غابة الليل تخفي الـدمع في الخلـد
ما حصحص الحق إن أصبحت شاهدكم
فاكتب لأصحبكم واكتم عن «الصمدي»
واهـرب مـن القشـطة النشـوى بفسـتقها
وقـل لصـحبك أن يـأتوك بعـد غـد
وواجـه الصـحب بالتجديـد معتـذراً
عـن اللقـاء بغيـر الغيـد.. تسـتفد
وابلـع مـع السـمك المشـوي شـوكته
لكـي تشـع انتعاشـاً ليلـة الأحـد

وأغـــرق الغيـــد في بحـــر بقافيـــة

وعلـــق الهـــم منبـــوذاً عـــلى وتـــد

واســـهر بملهـــى وملهـــى فارســـاً نهمـــاً

وطـف «بتـرك وطليـان» بـلا عـدد

إن الخـــدود ورود حـــين تقطفهـــا

تخطـو جريئـاً إلى الميـدان كالأسـد

obeikandl.com

٢٤

المجنون يتشاجر مع كارمن.. ويؤكد أن عاشقها ليس بخائن

قال المجنون لنفسه بصوت حانق.. يبدو أن الجو الرائق.. أصبح حلماً لا يتحقق على الأرض.. لأن عواصف الشر والبغض.. تتحرك من مكان إلى مكان.. وفقاً لتعليمات أكبر شيطان.. إني أتشوق للنزهة في الحدائق.. لكني لا أرى سوى الحرائق.. ولا أشاهد غير الغرباء اللؤماء.. يتمشون في الطرقات بكل خيلاء.. وهم يستمتعون بشرب كؤوس الدم.. بينما يتجرع الناس كؤوس الهم.. ولهذا لابد أن أبتعد عن الجميع.. إلى أن يعود للأرض الربيع.

بعد أن ركب المجنون صاروخه العابر للزمان.. أحس بقدر من الراحة والأمان.. فأخذ يتأمل السحب المتمهلة.. وهو يستنشق النسمات المقبلة.. وفجأة تمايل الصاروخ عدة مرات.. كأن السماء قد امتلأت بالمطبات.. أو كأن شظايا القنابل.. قد حولت السماء إلى جحيم من الزلازل.. وعلى الفور قرر المجنون الهبوط.. وفي القلب إحساس بالضيق والقنوط.

هبط المجنون في ساحة كبيرة.. فرأى أناساً يقومون بحركات مثيرة.. وهم يمسكون بسيوف عمياء.. يطعنون بها أجساد ثيران حمقاء.. بينما يتعالى التهليل من هنا وهناك.. عندما يسقط ثور دون حراك.. ولم يشعر المجنون بالراحة.. فقرر أن يتجول بعيداً عن

هذه الساحة.. وبعد أن تجول كما أراد.. وجد فتيات يرقصن بكل اعتداد.. وقد ارتدين أطول الفساتين.. وكأنهن زهرات تتفتح في قلب البساتين.

★ من أنت أيها الرجل الغريب؟

- قولي لي أين أنا الآن قبل أن أجيب.

★ قل لي أنت أولاً من أنت.. ومن أين أتيت؟

- أنا واحد ممن تدعو حالهم للعجب.. فقد كان حضارتهم أزهى من الذهب.. والآن يخشاهم الآخرون كما يخشون الجرب!

★ في الأمر سر.. هل أنت من الهنود الحمر؟

- لا.. لست من هؤلاء.. فالهنود الحمر عندهم عزة وكبرياء.. أما من أنتمي لهم أعمق انتماء.. فإن حالهم تدعو للرثاء.. والآن يا أجمل زهرة في البستان.. قولي لي أين أنا الآن؟

★ أنت في «اشبيلية» الخضراء.. وأنا ورفيقاتي نرقص «الفلامنكو» هنا كل مساء.

- أتعريفين أن أجدادي عاشوا هنا عدة قرون؟!

★ إما أنك مجنون.. وإما أنك ماكر وملعون؟

- أنا مجنون العرب.. أولئك الذين كانت حضارتهم من الذهب!

.. أشفقت الفتاة الحسناء.. على المجنون عندما أجهش بالبكاء.. وهو يقول.. في شبه ذهول:

الفلامنكو حنين لزمان ضاع منك

والفلامنكو بكائي فوق أنقاض الزمان

إنه قلبي الذي يبكي مع «الجيتار» يحكي شارداً عني وعنك

ثم ينسى كل شيء غير عينيك وما كنا - مع الماضي - وكان

الفلامنكو صبايا مستحمات بموسيقى كساها الكبرياء

في زمان عربي أبله النظرة يعدو صاغراً دون رداء

الفلامنكو عزاء

عندما أحضن يأسي في زمان عربي صادروا منه الرجاء

.. اندفعت الفتاة نحو المجنون دون أن تتردد.. واحتضنته بشوق وهي تتنهد:

جـادك الغيـث إذا الغيـث همـى

يـا زمـان الوصـل بالأنـدلس

لم يكـن وصـلك إلا حلمـاً

في الكـرى أو خلسـة المختـلس

★ أعترف بأني سعيد بهذا اللقاء.. لكني لا أعرف اسمك أيها الحسناء.

★ اسمي «كارمن».. وأعشق الدنيا بما فيها من متع ومفاتن.

★ أأنت حقاً «كارمن»؟.. إذا كنت حقا «كارمن».. فاسمحي لي أن أعترض على موقفك الشائن!

- ما هذا الذي تقوله يا مجنون العرب؟.. أتريد أن يستبد بي الغضب.. بعد أنكنا معاً في حالةطرب؟! هل تعرف عني ما تخفيه؟!

★ أعرف بعض الأشياء!

- وهل فيها ما يدعوك للاستياء؟

★ يا كارمن.. أنت مستبدة ساحرة.. لكن روحك تبدو حائرة.. وأخشى أن تجرفك دوامة الغيرة القاهرة.

- وضح لي ما تقول يا مجنون.. حتى لا تتركني أسيرة للظنون.

★ لماذا تتلاعبين بقلب حبيبك «جوزيه»؟.. هذا ما كنت أحاول أن أخفيه.

- «ياما تحت السواهي دواهي».. هل تعرف حقاً جوزيه؟

★ أعرف أنه يتعذب.. وأنه على نار العشق يتقلب.

- جوزيه خائن!

★ هذا ليس صحيحاً يا كارمن.

- وما الصحيح في رأيك إذن؟

★ الصحيح أن جوزيه ليس بخائن.. وهو لا يعشق إلا وجهك الفاتن.. أما أنت فإنك تعذبينه.. وهذا ما قد يحول حبه لك إلى ضغينة.

- وماذا تريد مني أن أفعله؟

★ كوني له وردة أو سنبلة.. ولا تنفجري فيه كأنك قنبلة.. بهذه الطريقة.. يمكن للصحراء أن تصبح حديقة.. صدقيني فأنا لا أقول لك غير الحقيقة.

obeikandl.com

٢٥

صور القتلى عديدة.. إنما في كل جريدة.. أصبحت ذكرى بعيدة

يفخر الإنسان بما حباه الله من عقل.. يدفعه لاختيار الأصوب في القول وفي الفعل.. لهذا يندهش المجنون حين يرى أن الناس تتلذذ بالقتل.. منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل.. فشربت الأرض دماء أول قتيل.. وبدأت أولى حلقات مسلسل القتل والتنكيل.. ومنذ ذلك اليوم الذي لا نعرفه.. أصبح هذا المسلسل أمراً عادياً نألفه.. كما أصبح قابلاً للعرض.. على امتداد سطح الأرض.. حيث يظل القاتلون يقتلون.. ويظل المتفرجون يشهدون.. ومنهم من لا يهتم.. إلا إذا تلطخت ثيابه بالدم!

هرش المجنون رأسه وقفاه.. وهو يتأمل ما يراه.. فالحيوان لا يقتل أخاه الحيوان.. إلا إذا أفقده الجوع الاتزان.. فهو يقتل لكي يأكل.. وإذا شبع فإنه لا يقتل.. أما الإنسان المتزن العاقل.. فإنه يحب أن يتحول إلى قاتل.. حتى وهو مصاب بالتخمة.. وحتى إن كان القتيل جلداً على عظمة.. لأنه لا يجد ثمن اللقمة.. كما أن الإنسان الذي يتميز بالعقل.. هو الذي يخترع كل ما يسهِّل عليه القتل.. ابتداء من السكاكين الغبية.. حتى الصواريخ الذكية.. ومن ساحات الإعدام.. حتى حقول الألغام.. والأغرب من هذا أن الذين يسمون أنفسهم متحضرين.. هم الذين يقتلون المتخلفين.. لكي ينهبوا ما في أرضهم من خيرات.. أو يستخرجوا منها ما

يطمعون فيه من ثروات.. وهم يبررون ما يرتكبون.. بأن المتخلفين لا يعقلون.. ويرفضون الرقص على حبال الديمقراطية.. لهذا يجب قتلهم دون دية.!

يقتل المرء.. لو.. لونه لم يرق لمجون العين

يقتل المرء.. لو حاصرته الظنون

يقتل المرء.. حتى وإن كان طفلاً بروح بريئة

فغداً.: يكبر الطفل، والأحوط الآن أن تقتلوه

يقتل المرء.. كي يستريح إذا أرهقته الحياة بأثقالها

يقتل المرء.. كي يستريح تماماً..

من العيش في ظل بؤس المخيم

يقتل المرء.. لو راح يعدو لينجو من القصف.. كي يستقر وينعم

يقتل المرء.. حتى ولو كان أماً رؤوماً تحيط بأطفالها

يقتل المرء.. لو دينه لم يرق للنفوس الدنيئة

يقتل المرء.. لو صوته غير أصواتكم أيها الحاملون الجنون

أيها الحاملون السلاح المباح ولا تحملون عقولاً مضيئة!

في القاهرة حي يسمى الزمالك.. وتتشعب في هذا الحي المسالك.. بعضها يفضي إلى المهالك.. ويتحصن في هذا الحي أغنياء الفنانين.. حتى لا تنزعج عيونهم برؤية الشحاذين.. ولا يضايقهم أصحاب الحاجة.. ممن يحلمون بأن يأكلوا في السنة فخذ دجاجة.. كما يتجمع في هذا الحي رجال الأعمال.. وكلهم يعيشون في أحسن حال.. حيث يقيمون السهرات الرائعة.. ويتمايلون عند الرقص بأشكال بارعة.. ويتناولون الأفخاذ المرمرية.. حتى لو لم تكن لهم شهية.. أما الفقراء فبينهم وبين الزمالك نفور.. لأن عيونهم تخاف من رؤية الفلل والقصور!

افترض رجل الأعمال من البنوك ملايين.. ربما لكي يتصدق بها على المساكين.. أو ليقدم لهم اختراع الكهرباء.. حتى يعرفوا في الليل معنى الاضياء.. وتزوج رجل الأعمال فنانة شهيرة.. وأخذ يغار من شهرتها الكبيرة.. لأنه يعرف أن العشاق كثيرون..

وأنهم في حروب الحب يتنافسون.. وهكذا أخذ الزوج الغيور.. يفتعل الأسباب لكي يثور.. وطالب الزوجة ألا تسهر خارج البيت.. وأن تلتزم بآداب الصمت.. وتحبس ما لديها من جمال الصوت.

رفضت الزوجة هذا العرض.. فتحول حب الزوج إلى بغض.. وتحولت الغيرة إلى قوة عمياء.. فلم يعد يستطيع تمييز الأشياء.. برغم كل أضواء اختراع الكهرباء.. وفي الليلة المعهودة.. وقعت الحادثة المشهودة.. حيث انهمر الرصاص ليخترق الجسد.. ولم تعد الفنانة مثاراً للحسد.. فقد بكى عليها كثيرون.. بعد أن غاب الصوت الذي كانوا يحبون.. بسبب الغيرة التي تندفع بلا عيون.. وهنا تنافست الجرائد.. في حكايات كثيرة عما جرى من مكائد.. وقيل إن الزوجة قد سقطت شهيدة الحب.. رغم أن الزوج كان يتمتع بأطيب قلب.. وهنا تعجب المجنون من جديد.. وسأل نفسه: كيف يتحول القلب إلى صنم بليد؟.. وظل المجنون يهرش رأسه وقفاه.. من هول ما يراه.. من مآسي هذه الحياة.. وكلها من المآسي التي يتسبب فيها الإنسان.. دون أن يفكر فيها أي حيوان.. وبعد أن ساد الصمت.. صرخ المجنون بأعلى صوت:

صور القتل عديدة ... عندما تطغى المكيدة
وخواء العقل يفضي ... للخيالات البليدة
ودم الإنسان يجري ... بعد سهرات سعيدة!
السلاح الآن سهل ... والعناقيد مبيدة
لم يعد للعقل معنى ... والخطى ليست رشيدة
صوت حب قد تلاشى ... بعد مأساة جديدة
وجه من كانت تغني ... ضاع في ريح عنيدة
وجهها أصبح ذكرى ... والليالي لن تعيده
همسة الحب تلاشت ... أصبحت ذكرى بعيدة

obeikandl.com

٢٦

ناد المثقف واعطه بقشيشا .. وإذا تلكأ .. وفه التلطيشا

جلسوا متصنعين الأدب والخشوع.. بعد أن قيل لهم عليكم دائماً بالخنوع.. فإذا قيل لكم: قفوا، عليكم بالوقوف.. وليس شرطاً تسوية الصفوف. وإذا قيل لكم: لا تقرأوا.. عليكم بتمزيق الحروف.. أما إذا قيل: أطيعوا، فعلى كل منهم أن يتحول إلى خروف.. ولا بأس من أن يكتسي بالصوف.. لكن لابد أن ينزع قرنيه.. حتى لا ننزع منه عينيه.

تزاحم المتنافسون.. وتنافس المتزاحمون.. فيمن يجلس في الصفوف الأولى قبل سواه.. وهكذا غاب العقل أو تاه وفجأة رفع الحراس والحُجاب ما في أيديهم من حراب.. وقال أحدهم بصوت منغم مسموع:.. الكلام الآن ممنوع..!لأن سيدنا المهاب:. سيدخل حالاً من هذا الباب.. فعليكم بالوقوف بكل أدب.. حتى لا تصبحوا مثل دعاة الشغب.. وعليكم أن تصفقوا بانتظام.. حتى يشعر سيدنا بما تضمرونه له من احترام.. وإذا أشار لكم بالجلوس.. فعليكم أن تجلسوا حسب البرنامج المدروس.. واحذروا أن يندس بينكم أي مهووس.. حتى تعيشوا في أمن وسلام.. بفضل همة سيدنا الهمام.

بعد طول ترقب وانتظار.. دخل المهاب مبتسماً وسار.. حيث أجلسه حشد من الأعوان.. بكل راحة واطمئنان.. على كرسيه

الفخم الوثير.. بعد أن وضعوا خلفه مخدة من الحرير.. وهكذا بدأ الحفل.. وامتد إلى منتصف الليل.. حيث قامت راقصة لولبية.. بأداء حركات استعراضية.. ومع كل حركة من الحركات.. كانت القلوب تتحول إلى جسور للتنهدات.. والحق أنه لم يكن في تلك الحركات ما يدعو للاستهجان.. لأن الكل يتبرك بشهر رمضان.. وفي أجواء رمضان المبارك.. لا يجوز لأحد أن يتشابك.. إلا مع الشياطين.. بعد أن يقدم الطعام للمساكين.. وعندما انتهى الرقص بالفرفشة.. ألقى أحد الشعراء قصيدة مزركشة.. وقد لوحظ أن الشاعر قد نزع قرنيه.. وأنه كان دائماً يسبل عينيه:

قف للمعظم.. وفه التسبيلا

كاد المعظم أن يكون عميلا

أرأيت أجمل أو أحن من الذي

يأتي وتمسك كفه منديلا

إن الذي جعل الحياة جميلة

بالرقص يحيا مشرقاً وجميلا

يسخو على الشعراء بالذهب الذي

يجري اللعاب ويوجب التطبيلا

ما أصدق الشعر الذي إن قلته

في مدح غيرك يستحيل رذيلا

أنت الندى للورد يا بدر الدجى

والورد أنت إذا سخوت مُنيلا

بعد أن فرغ الشاعر من قصيدته.. جلس منتعشاً ومزهوا جوار صديقته.. أما السيد المهاب فقد سأل عن معنى كلمة «عميل».. وهل هي هجاء رذيل.. أم مدح جميل.. وهنا تدخل أحد الأعوان.. وقال له إنها كلمة تدعو للاطمئنان.. وبعد أن اطمأن السيد المهاب.. تقرر أن تدار الأكواب.. تمهيداً لتوزيع العطايا ورش الذهب.. وهنا دخل

القاعة من اكتسى وجهه بالغضب.. وأخذ يتحدث عما يواجهه الجميع من خيبة. خاصة وأن النكبات تتوالى نكبة بعد نكبة.

ظل الرجل الغاضب يشير إلى سفينة.. تتقاذفها الأمواج وهي مستكينة.. ولم يفهم الهمام ما يقال.. لكنه خرج من القاعة في الحال.. وهو يسأل هامساً عن معنى نكبة.. وهل هي مدح أم سبة؟.. وأثناء خروجه نادى على أخلص الأعوان.. وقال له: اقرأ الآن.. هذا البيان:

نـاد المثقـف..واعطـه بقشيشـاً

وإذا تلكـأ.. وفـه التلطيشـا

فأنـا أحـب نفـاق كـل مثقـف

يرضى السكوت ويعشق التطنيشا

ويقول: مـا أحـلى الجـوائز في يـدي

إن جلجلـت برنينهـا.. لأعيشـا

والبهلـوان أحبـه.. متراقصـاً

متأبطـاً ألعابـه وحشيشـا

أو خائفـاً مـن حضـرتي إن لم أطـق

ألعابـه.. فتوقـع التفنيشـا

لكـن هـذا الوغـد لـيس كغيـره

يجـري لجـائزة فيصـبح طيشـا

فلترجعـوه إلى الحظيـرة ضـارعا

أو فـانزعوا أفكـاره والريشـا

أو فاسـجنوه إذا تناسـى سـطوتي

أو أمعنـوا في بيتـه تفتيشـا

إن الثقافـــة آفـــة تجتاحنـــا

فتكـــدر السـهرات والتحشيشـــا

ســأظل في كرســي لوحــاً ثابتــاً

فلقـد صـبغت ملامحـي ونريشـا!

obeikandl.com

٢٧

المهـووس الأحمـق.. يقـع في مأزق.. والثعلب لا يترفق

لن أسمح أبداً لمجنون أو عاقل.. أن يناقشني فيما أنـا فاعـل.. وطالما أني أحب النساء.. فلابد أن أتزوج منهن كمـا أشـاء.. وقـد جربـت المـرأة العربيـة الحسـناء.. لكنـي طلقتهـا بسـرعة.. لمـا فضحتني وقالت إني سيء السمعة.. وحين تنازلت وقررت الزواج من امرأة منحطة.. تسمي نفسها «مالطة».. وجدتها تتحول فجأة إلى أشرس قطة.. وابتعدت عني قائلة إن هذا الزواج أكبر غلطة.

خوفاً من أن يقتلني الرجال.. أحطت نفسي بفتيات يعرفن فنون القتال.. وأحطت نفسي بالمـاعز والجمـال.. وأخـذت أتغـزل في امرأة من إفريقيا.. رغم أنها تعاني من فقر الدم والأنيميا.. وقلت لها بنبرة فيها ما فيها من إغراء.. إني أحبـك أيتهـا الجميلـة السـوداء.. وسأظل أحبك دون انتهاء.. وسأدفع مهرك بـالملايين.. حتـى لـو قال أعدائي إنيّ صرت من المجـانين.. لكنـي – كمـا قلـت – لـن أسمح لمجنون أو عاقل.. أن يناقشني فيما أنا فاعل.

قالت المرأة الأفريقية في الحال.. إن زواجنا الآن محال.. فلابد أولاً أن تتحسن الأحوال.. ولا يمكن أن تتحسن هـذه الأحـوال.. إلا إذا بعثرت عليها وعلى أقاربها الأمـوال.. حتـى يتجنبـوا بـؤس الحياة في الأدغال.. ويهربوا مما يواجههم من أهوال.

❊❊❊

فجأة وجدت نفسي في العراء.. بعد أن انفضحت أمام الأصدقاء والأعداء.. خصوصاً بعد أن رفضتني نساء كثيرات.. ورغم أن فيهن جميلات.. إلا أني اعتبرتهن رذيلات. لأنهن رفضن الزواج مني.. وابتعدن – واحدة تلو أخرى – عني.. وقد أغاظتني إحداهن.. وتركتني أتوجع وأئن.. حين قالت لي أني مهووس أحمق.. ولهذا أقع دوماً في مأزق.. كما أغاظتني امرأة أخرى لئيمة.. لكنها تزعم أنها حكيمة.. مؤكدة أن الثعلب لا يترفق.. بأي مهووس يوقع نفسه في مأزق.. خصوصاً حين تظل الحفرة تتعمق.. ولم تتردد هذه المرأة اللئيمة.. أن تقول إني ارتكبت ضد أهلي أبشع جريمة.. وإني قد قتلت من قتلت.. ونسفتُ ما نسفت.. كما فشلتُ في الزواج ممن أأبيت.. وأخيراً فإني ركعتُ واستسلمت!..

أحس المجنون أن الهواء. لا يحمل إليه غير رائحة المأسي السوداء.. وأخذ يبكي ويضحك حين تأمل الصحراء.. فوجد أنها تتشابه مع رأسه الصلعاء.. ولمح المجنون رجلاً يهذي ويصيح.. وتبدو عيناه زائغتين في الفضاء الفسيح.. فاندفع إليه بكل فضول.. وسأله وهو في شبه ذهول:

– لماذا تأكل قشر البطيخ؟

★ لأني كنت أحلم أن تصبح هذه الصحراء.. أرضاً خصبة خضراء.. وحين يئست من الأحلام.. حكمتُ عليها بالإعدام.. فأنا لا أطيق هذا اللون الأصفر.. ولهذا تراني ألتهم الآن قشر البطيخ لأنه أخضر!.

– لكني رغم ما يقال عن جنوني.. من جانب الذين رافقوني أو صادقوني.. أأب أن أؤكد لك الآن.. أن العين لا تستمتع إلا بتنوع الألوان.

★ أتحاول أن تجعل إيماني بالأخضر يتزعزع.. هذا محال أيها المجنون الأصلع.. وإلا ضربتك كما يضربون حماراً يتعثر في مطلع!.

خاف المجنون من لجوء الرجل للعنف.. بعد أن لمح قربه ألف سيف وسيف.. لكنه اطمأن لما رأى السيوف يكسوها الصدأ.. كأنها تؤكد أن نور المجد قد انطفأ.. وانطلق المجنون في قلب الصحراء.. وفجأة ثارت عاصفة سوداء.. وشوهد الثعلب يتقدم في قلب العاصفة.. دون أن تمنعه من التقدم أية أشجار واقفة.. لأن الأقنعة الخضراء كانت زائفة.

- لماذا أتيت أيها الثعلب؟

★ هل تظن يا مجنون أني ألهو أو ألعب.. إن المهووس الأحمق.. قد أوقع نفسه في مأزق.. وأنت تعلم أني لا أترفق.. إن المهووس يطلب الزواج من أمريكية بيضاء.. بشرط أن تأكل قشور البطيخ الخضراء.. لكنه ارتعد من العاصفة السوداء.. وتخلى عن شرطه دون إبطاء.. والآن عليك أن تبتعد يا مجنون عن طريقي.. حتى لا أصب عليك سيول حريقي.

غلت نار الغضب عند المجنون وثار.. وقال ساخراً من الثعلب المكار.. إنك تتقدم الآن ولكن من غير ذيل.. بعد أن ذقتَ ما ذقتَ من أطباق الويل.. وذات يوم سيتوحد لقتلك الكل.. وساعتها سأقدم للكل الياسمين والفل.. وما هي إلا لحظات.. حتى انطلق صوت ساخر النبرات:

رفع الثعلب كأساً ... من كؤوس الماكرينا

شرب المهووسُ منه ... فتداعى مستكينا

وتلوى فوق رمل ... لاعقاً ذلاً وطينا

والزواج الآن أضحى ... وهمَ مهووس أهينا

ليس للثعلب عهدٌ ... لا ولا يعرفُ دينا

ها هي الحفرة تبدو ... كي تواري الساقطينا

obeikandl.com

٢٨

أفعى غادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. تزعم أنها طاهرة

تعرضت مهنة رعاة البقر.. لألف خطر وخطر.. فأمضى الرعاة السهر.. وهم يفكرون في مهنة.. تبعدهم عما يواجهونه من محنة.. وهداهم تفكيرهم أن يتاجروا بالأوهام.. بعد أن يؤكدوا للبلهاء أنها أحلام.. وبهذا يخفون ما في قلوبهم من مرض.. ويتحقق لهم ما يهدفون إليه من غرض.. وهكذا نزعوا أولاً أشجار المحبة والوفاق.. وبذروا مكانها بذور الشقاق.. فارتوت الأرض من شلالات الدماء.. وتساقطت فوقها أجساد الأبرياء.. وفيهم أطفال رضع ونساء.. ونسي الناس معاني الأخوَّة.. وأصبح المنطق السائد هو القوة.. وحلَّ وجاءُ القتل.. ليلغي جمال العقل.. كلا هذا لكي تروج تجارة الأوهام.. والويل لمن يعترضون فمصيرهم هو الإعدام.

كما يصطف خروف وراء خروف.. اصطف التعساء في صفوف.. وأخذوا يتزاحمون على شراء الأوهام.. بعد أن أقنعهم التجار أنها ألذ من أشهى طعام.. فاشترى بعضهم خريطة للطريق.. واشترى بعضهم أشياء دون تأمل أو تدقيق.. لأنها موضوعة في علب فاخرة.. ومرتبة بطريقة خادعة وماكرة.. أما الذينَ تم نهب بيوتهم.. فقد حصل بعضهم على ثمن سكوتهم.. وخلال لعبة المتاجرة.. كان لابد أن ينحني السماسرة.. تحت أقدام التجار الجبابرة.. حيث انتشرت تجارة التحرير.. وهي تجارة تبدأ بالتدمير.. حتى تتحقق أوهام التغيير.. ويتراءى سراب التطوير!.

أمام ضفاف بحيرة الحيرة.. وقف المجنون ينظر في حسرة.. بعد أن رأى أقداماً همجية.. تتحرك بكل حرية.. ورأى أطفالاً يبكون.. كما شاهد عقلاء يلهون.. ورأى كيف ارتجف من ارتجف.. كما رأى من تم تعذيبه فاعترف.. دون أن يكون قد ارتكب جناية.. أو وقع في مصيدة الغواية.. ولم يطل المقام بالمجنون.. فقرر أن يركب بساط الريح المضمون.. حتى يستطيع الرؤية بشكل أكبر.. ويتعرف على ما يجري أكثر وأكثر.

في غمضة عين.. رأى المجنون امرأتين.. إحداهما تتحلى بالوقار والجلال.. أما الثانية فتبدو في غاية الجمال.. وكانت المرأتان تتحركان باعتداد.. وكل منهما تتشحان بالسواد.. أما الأقدام الهمجية.. فإنها كانت تحاول بكل ضيق وعصبية.. أن توقف المرأتين عن المسير.. مع تهديدهما بأنهما ستواجهان أسوأ مصير.. إذا لم تستسلما للغواية.. وفقاً لحبكة الرواية.

خلال عدة لحظات.. وقفت الجميلة الشابة بثبات.. وحولت جسدها إلى عاصفة من نار.. فاحترق على الفور بعض الأشرار.. ودب الذعر بين الأقدام الهمجية.. بعد أن كانت تتباهى بمشيتها العسكرية.. أما المرأة الرائعة الجليلة.. فإنها تحولت إلى مقاتلة أصيلة.. لمجرد أنها سمعت أن الهمج يريدونها خليلة.. ودون أي تردد أو مهادنة.. تحركت لتقاوم القراصنة.. وحين سقط أحد أبنائها وأصبح في عداد الشهداء.. لم تلجأ للدموع سلاح النساء.. وإنما امتزج الحزن في قلبها بالكبرياء.. وهي تقول بصوت هادئ وعنيد.. مخاطبة روح ابنها الشهيد:

اكشف بروحك للرجال سماء ... يا أيها الوجه المشعإباء
وافضح بموتك من تعرّوا فجأة ... واسترحموا الأوغاد واللؤماء
وتساقطوا ورقاً هزيلاً دائخاً ... ومع السقوط تنفسوا الصعداء
صاروا على أيدي المغول عجينة ... وتبجحوا أن أصبحوا حكماء
أنت الشهيد الحي في درب الفدا ... يا من رفضتَ الوهم والإغواء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تستلمس الحرية الحمراء»

ابتعد المجنون ببساط الريح.. وهو يشعر أن قلبه مستريح.. بعد أن رأى بالعين.. ما

كان من أمر المرأتين.. الشابة الجميلة.. والرائعة الجليلة.. وفجأة سمع المجنون وهو في الفضاء.. أصواتاً تمتزج فيها الفوضى بالضوضاء.. وتتعالى من قلب الصحراء.. وبالطبع فإنه هبط على الفور.. عساه أن يكشف وجه السر.

وجد المجنون نفسه أمام مرآة معتوهة.. حركاتها طائشة ومشبوهة.. ظلت المرأة تخلع ما عليها من ثياب.. قائلة لنفسها: لقد قضيت حياتي في سراب وراء سراب.. وآن لي الآن أن أعيش حياتي.. وأن أستمتع بالزمان الآتي.. ولابد أن أسلم جسدي للأقدام الهمجية.. حتى أتلذذ بمفاتني الجسدية.. وأعلن للكل أني لست متحجرة.. وإنما امرأة عصرية متحررة.

تعرت المرأة المعتوهة دون حياء.. فأغمض المجنون عينيه دون إبطاء.. لكنه فتحهما حين أحس بحركة.. فرأى المرأة تبدو مرتبكة.. بعد أن التفت حولها أفعى غادرة.. جعلتها تائهة وحائرة.. وأخذت الأفعى تلتفُ وهي تتسلى.. بمن كانت تزعم أنها المثل الأعلى.. وبين الإشفاق والأسف.. تذوق المجنون طعم القرف.. حين رأى تلك الأفعى الغادرة.. تتسلى بامرأة فاجرة.. كانت تزعم دوماً أنها طاهرة.. ومرة أخرى وجد المجنون نفسه أمام ضفاف بحيرة الحيرة.. وهو يذرف عبرة تتلوها عبرة.

من أعماق الفضاء البعيد.. تجاوب المجنون مع صوت فريد.. صوت أكبر شعراء العرب.. وهو يؤكد أن ما جرى لا يدعو للعجب:

«ذلَّ من يغبط الذليلَ بعيش ... رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمامُ

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجةٌ لاجيء إليها اللئام

من يهن يسهل الهوانُ عليه ... ما لجرح بميت إيلام»

ها هي المرأة اللعوب تعرت ... بعد أن لفت روحها الأوهام

تشتهي أن يذوقها أي فحل ... لو أتاها وفي يديه لجام

يا لعهر مزخرف بالمخازي ... فاض من وجهه الغبي ظلام

obeikandl.com

٢٩

قيس بن الملوح يترنح.. بعد ن أخبروه أن ليلى تتأرجح

أذاب الحب قلب قيس.. وهو يتقلب بين الرجاء واليأس.. فمرة يتذكر لياليه السعيدة.. قبل أن تصبح ليلى بعيدة.. ومرة يتعزى بكتابة الشعر.. حين يضيق الصدر.. وينأى عنه الصبر.. ومرة تدعو حالته للإشفاق.. خصوصاً حين تعصره الأشواق.. لليلى المريضة في العراق.. وأخذ الحزن يتجمع ويتجدد.. بينما يهذي قيس ويتنهد:

يبوح القلب دوماً باشتياقي
لليلاي المريضة في العراقِ
أرى جسداً تفتته المآسي
على أرض تئن من الشقاق
وتحلم بالنهار يبث فيها
شموساً للتناغم والتلاقي
ولكن كيف يشفيها طبيب
يدس السم في جسد الوفاق؟
أنا المجنون - يا ليلى - أنادي
عليك وقد نأى عني رفاقي
وأنت الآن في ظلمات بؤس
يلف يديك في دمك المراق

بعد أن قال قيس بن الملوح ما قال.. خر مغشياً عليه في الحال.. فاندفع إليه صديقه مجنون العرب.. وقد استبدت به حالة من الهياج والغضب.. وطلب من قيس أن يفيق.. وألا يبدو دائماً كأنه غريق.

- يا أخي قيس.. انهض وانفض عنك اليأس.. صدقني إن هذا الإغماء.. لا يستفيد منه سوى الأعداء.. إننا نحتاج إلى التفكير.. لا إلى أن تستسلم للتخدير.

★ لكني فقدت شهيتي لأن أتكلم.. ولم يبق لي إلا أن أهذي وأتمتم.

- وأنا أطالبك حالاً بالانتباه.. لكل ما تنطق به الشفاه.

★ أية شفاه تقصد يا مجنون؟

- شفاه الجميع.. وفيهم من يحبون لليلى أن تستمتع بالربيع.. وفيهم من يريدون أن تبدو لهم بمظهر خليع.. وفيهم كذلك من يدبرون لأمر فظيع.

★ وأنا لا أتمنى إلا أن أستمع لليلى.. فهي الأحلى في حياتي والأغلى.

- سأحقق لك ما تريد.. أيها الشاعر الهائم الشريد.

... تأكد المجنون أن «الموبايل» على ما يرام.. فسجل عليه عدة أرقام.. ثم أعطى «الموبايل» لقيس.. فاستمع إلى صوت أزاح عنه اليأس:

★ آلو.. أنا ليلى.. وأنت من تكون؟

- أنا عاشق التراب الذي تمشين عليه.. أنا قيس الذي يتمنى أن يفديك بعينيه.. وقد أحببت أن أطمئن عليك.. متمنياً لو كنت الآن بين يديك..

يقولون ليلى بالعراق مريضة

فياليتني كنت الطبيب المداويا

★ دائماً تؤكد لي أن إحساسك صادق.. وهذا شأن الإنسان العاشق.. إن الحركة هنا مرتبكة.. والرعب يكاد يشل الحركة.

- هل يقربك الآن أحد؟

★ الغرباء الذين لا أعرفهم كثيرون.. والمخلصون في زنازين السجون.. وهناك من يقولون إني لستُ عربية.. ومن يقولون إني كردية.. وهناك من يرددون أني شيعية.. بينما

يردد آخرون أني سنية.

- وأنت يا ليلى ماذا تقولين؟

★ ألم تعرفني يا قيس على امتداد السنين.. أنا كل هؤلاء أجمعين.. أنا عربية وكردية وشيعية وسنية ومسيحية وصابئية.. أنا كل هؤلاء أجمعين.. رغم العبث والعابثين.. ورغم كل الذين يريدون هدم البيت.. ويعلنون هذا بأعلى صوت.

- أحمد الله على أنك تقولين هذا يا غالية.. وإن كنت أحس أنك قد صرت نائية.. وأحياناً أتوهم أنك قاسية.

«معذبتي.. لولاك ما كنت هائما

أبيت سخين العين حران باكيا

معذبتي.. قد طال وجدي وشفني

هواك فيا للناس قل عزائيا»

★ يا قيس بن الملوح.. يا حبيبي لا تترنح.. لقد أخبروك أن ليلى تتأرجح.. وهذا كذب مبين.. فانهض بعزم لا يلين.

- إني أحس بالانكسار.. بعد أن تأخر إشراق النهار.

★ النهار يشرق من القلب.. ما دام قلبك ينبض بالحب.

- حقاً ما أجمل الحب يا ليلى.

★ حاول أن تجعله يتجلى.. وهو لا يتجلى إلا بالعمل.. لكي نتنصر على كل العلل.

- ما دمت قد أكدت بصوتك الجميل.. أننا سنزيح من طريقنا كل رذيل وخيل.. فمن حقي الآن أن أتطلع للنهار.. رغم كل ما حولك من دمار.

obeikandl.com

٣٠

مهبوش بن مرعوش .. أقوى من كل الوحوش !

بحمقه المعهود.. وأفقه المحدود.. تخيل مهبوش بن مرعوش.. أنه أقوى من كل الوحوش.. فنظر حواليه باستعلاء وازدراء.. تجاه كل ما يراه في الأرض والسماء.. وأراد أن ينزع الحب من قلوب الناس.. فتصادق مع الوسواس الخناس.. لكي يتمكن من تحويل الكرة الأرضية.. إلى غابة مرعبة دموية.. وهكذا جمع الذئاب والثعالب.. وتحالف مع الأفاعي والعقارب.. ثم أمر بإطلاق حقده الدفين.. لكي يدك به بيوت الآمنين.. كما أمر بإطلاق نار البراكين.. لكي يحترق النخل في البساتين.. والويل كل الويل للمعترضين.. فمصيرهم هو القتل أو الرمي في الزنازين.

شل الخوف قلوب العصافير.. فلم تعد تغرد أو تطير.. ولم تعد تقفز من غصن لغصن.. بعد أن أطل من عيونها الذعر وسوء الظن.. وهذا ما أغاظ أحد العشاق.. ممن يحبون رحابة الآفاق.. فأخذ يدعوها للغناء والانطلاق:

«ألا طيـــري.. ألا طيـــري

وغنـــي يـــا عصـــافيري

فمـــن غصـــن إلى ثـــان

يفـــوح شـــذى الأزاهيـــر

ومـــن أشـــواقي أعمـــاقي

أغـــــان في مزاميـــــري

ونـــور الشـــرق في الـــدنيا

لـــه ســـحر الأســـاطير

اقترب من العاشق الطيب عصفور.. وقال له: لماذا أنت مسرور؟.. ألا ترى أن الشر قد زاد عنْ الحد.. وأن السماء كلها برق ورعد؟... وبدلاً من أن تغرد العصافير على الأغصان.. تعالى في الجو نعيق الغربان.. وبدلاً من أن تنضج الفواكه والثمار.. شوهدت الخفافيش تتعلق بالأشجار.. فقهقه من فرط النشوة مهبوش بن مرعوش.. وعلى الفور نافقته صغار الجحوش.. فصفقت له بالحوافر والذيول.. وهي تتمرغ فوق الوحول.. بينما لبست الحقول ثياب الحداد.. في كل أرض السواد.. وتحدرت فوق خدود الفرات دموع.. وصرخ دجلة من قرارة قلبه الموجوع.. وتحجرت الكلمات على شفاه النيل.. منذ أن غاب عنه الفارس الأصيل.. فلم يستطع أن يساعد النهرين.. لأنه وجد نفسه مقيد القدمين.

بالقرب من المدينة التي عشقها الرشيد.. أيام المجد العربي التليد.. شوهد الألوف من الأبرياء العراقيين.. وهم يذوقون ويلات الجحيم في الزنازين.. على أيدي القتلة والسفاحين.. ممن أوهموا الآخرين.. بأنهم أرقى المتحضرين.. وعلى باب كل زنزانة.. تتلاقى نظرات كل سجان وسجانة.. والكل يرفع علامة النصر.. كأن لهم مع المساجين أقدم ثأر.. مع أنهم جميعاً غزاة أجانب.. تدربوا على اللسع واللدغ في معسكرات العقارب.. منذ أن حول مهبوش بن مرعوش الكرة الأرضية.. من واحات ظليلة وندية.. إلى غابة مرعبة وحشية.

تلاحقت صور الفظائع الهمجية.. عبر القنوات الفضائية الأجنبية والعربية.. حيث شاهد الجميع أجساد الأبرياء.. عارية إلا من آثار التعذيب والدماء.. أو موصولة بأسلاك الكهرباء.. وتراءت وجوه القتلة والسفاحين.. وقد تلذذ أصحابها بما ارتكبوه من إثم مشين.. وهكذا ظهرت فظائع المحررينَ.. وتأكد الجميع أنهم من قطاع الطرق

المحترفين.. وبمجرد أن بان الزيف على حقيقته.. خرج مهبوش بن مرعوش إلى ساحة حديقته.. وأكد أنه قد امتعض مما رآه.. وأنه لابد أن يعاقب الجناة.. رغم أنه هو الذي حركهم مع سواهم من المرتزقة الأجانب.. ممن تدربوا على اللسع واللدغ في معسكرات العقارب.

مهبوش بن مرعوش.. يتخيل أنه أقوى من كل الوحوش.. والحقيقة أنه أخطبوط.. يحاول الإمساك بكل الخيوط.. ولهذا يريد تحويل الكرة الأرضية.. إلى غابة مرعبة دموية.. تتنزه فيها الأفاعي مع العقارب.. وتتعشى فيها الذئاب والثعالب.. على ما تبقى من يمام وأرانب.. لكن الخاتمة المثيرة.. لهذه الحكاية القصيرة.. تؤكد أن هذا الإخطبوط.. لا يدري أنه على وشك السقوط.

obeikandl.com

٣١

إرخي الستارة اللي فريحنا
أحسن ريحتنا تفضحنا

كأنهم بدون عيون.. أو أنهم بعيونهم لا يبصرون.. ويبدو أنهم قد فقدوا السمع.. بعد أن تعرض قفا كل منهم للصفع.. كما أنهم أصيبوا بمرض فقدان الإحساس.. وسرت العدوى منهم إلى كثيرين من الناس.. وقد تجسس عليهم المجنون.. منذ أن أدرك أنهم كاذبون.. وأنهم لا يتحركون إلا بعد رنين التليفون.. حيث يتلقون كل صباح مكالمة.. تهددهم بالطرد من الخدمة دون محاكمة.. إذا لم ينفذوا ما يُتلى عليهم من تعليمات.. دون أي مناقشات أو تعليقات.

تظاهر الجبناء أنهم فرسان.. وأنهم أشجع الشجعان.. وهكذا تلاقوا مع بعض.. رغم ما في قلوبهم من مرض ينضح بالبغض.. وبعد أن شربوا عصير الكذب الأسود.. تخيل أحدهم أنه العبقري الأوحد.. فصاح مهدداً بهدم المعبد.. بعد أن أحس أنه جلس على مسمار في المقعد.. وبمجرد أن ابتعد عنهم وخرج.. أحس بعض الجالسين بالحرج.. بينما قال آخرون: «جانا الفرج».. وهكذا تخيل الجميع.. «أن الجو بديع.. والدنيا ربيع..».. وخوفاً من الحسد.. أو من أن يراهم أحد.. أحكموا إغلاق الستائر السوداء..

«إرخي الستارة اللي فريحنا»
أحسن ريحتنا تفضحنا
أو ييجي بشبوش يدبحنا
يا مضروبين بالقوي يا احنا

فجأة هبت عاصفة قاصفة.. فتزلزلت كل القلوب الخائفة.. وانقلبت على الجالسين الموائد.. وسقط بعضهم تحت المقاعد.. إلى أن طمأنهم من حولهم من الأعوان.. مؤكدين لهم أنهم في منتهى الأمان.. وكل ما في الأمر أن رياح التغيير.. كانت تحاول هدم غرف التخدير.. لكنها فشلت في المحاولة.. وقد تبين للأعوان بعد المداولة.. أن رياح التغيير دوماً حاقدة.. وأنها أجنبية ووافدة.. وتحب إشعال النار الخامدة.. وإبعاد رائحة الجيف الهامدة.

بعد أن أفاق الجميع من الصدمة.. أخفى كل منهم عن الآخر همه.. إلى أن قال أحدهم وهو يدعي الحكمة:

– إن جبني يشارك.. في كل المعارك.. حيث أدعي أني في حالة نوم.. إلى أن يزول العناء والغم.. ولهذا لا أخوض في أي جدال.. حول ما يسمونه بالنضال.. وبهذه الوسيلة الجميلة.. يمكنني أن أحيا حياة طويلة!

★ لكني أعرف أن الجبن رذيلة.

– وأنا أعرف أنك تدعي الشجاعة.. وتحاول أن توهمنا بهذا بكل براعة.

★ قل عني ما تشاء.. ولكن فلتتذكر أن الأرض تفيض بالدماء.. ولن يرحمنا أحد من الأعداء.

– الذين تسميهم أعداء.. يمكننا بالجبن أن نجعلهم أصدقاء.

★ هناك نساء عربيات أصبحن سبايا.. أما الصغار فقد حصدتهم الشظايا!

– يا أخي.. لا تفسد علينا جمال الليلة.. لماذا لا تتذكر أننا في أحلى حفلة.. قل لكل امرأة من نسائنا العربيات.. توقفي الآن عن إطلاق الصرخات.. تطول المعارك.. وجبني مشارك.. بقتل صغارك.. واسكت الآن لتسمع قصيدتي الجديدة.. لأنها تنطق بالحكمة الفريدة:

أخي.. ضيعت خيلُنَا الموعدَا

فمد الضياع إلينا اليدَا

كما تلطم النادبات صرخنا

«أخي.. جاوز الظالمون المدى»

ورحنا نجدد «سفر الخروج»

وهم في الدخول أعدوا المدى

خرجنا مع العار والقدس تنأى

وضاق الزمان بمن شُردا

رجعنا من القدس للرجس نحيا

وباح الخراب بما قد بدا

وعشنا مع الوهم نلهو وكلٌّ

يرى نفسه فارساً أوحدا

تركنا الصغار بكهف «الجدار»

وزيف «الطريق» وما حددا

نسينا الشهيد وطرنا خفافاً

لنرفع نخب كؤوس العدى

سجدنا على وحلهم ضارعين

«وكانوا لنا قدراً مرصدا»

فقد خمدتْ في الصدور الشموس

وشق الضلالُ جبين الهدى

وضلت خطانا وعدنا حزانى

وباهى الجمود بما أفسدا

وفر المسوخ إلى جحرهم

وقالوا: «سلام» وما من صدى

وفي «غزة» صاغ غدر الغزاة

سلاماً – على ذوقهم – أسودا

ونمنـــا طـــويلاً كمـــا نشـــتهي

لنمحـو الحمـاس وننسـى الفـدا

سكتنا عـلى الـوحش منـذ ارتجفنـا

فطرنـــا هبـــاء وصـــرنا ســـدى

فلســـطين.. لا تزعجـــي نومنـــا

وأهَدي وحـوشَ العـدا المسـجدا!

obeikandl.com

٣٢

«أرانب الحرية» مسرحية مضللة هزلية

لم يستطع الممثلون.. إقناع الذين يتفرجون.. أن فكرة المسرحية.. تنبثق من أوجاع الأرض العربية.. فضلاً عن ممثلين كثيرين.. لم يكونوا لأدوارهم حافظين.. ولهذا استعانوا بجهود الملقنين.. فتداخلت الأصوات وارتفع النشاز.. وتناقضت أوتار العود مع موسيقى الجاز.. وقد حرص مؤلف المسرحية.. وهو أجنبي لا يجيد اللغة العربية.. أن يظل متوارياً عن الأنظار.. وإن كان قد شوهد بعد رفع الستار.. وهو يحاول تعديل بعض الجُمل.. حتى لا يشعر الحاضرون بالملل.. أو يهرب منه الذين أصبحوا بلا عمل.

قبل أن يبدأ عرض المسرحية.. كانت الأرض قد اهتزت على وقع انفجارات قوية.. وكان بعض مساعدي المؤلف.. قد انتقدوه مؤكدين أنه رجل مخرف.. بعد أن دب بينهم في السر.. خلاف حول المكافأة والأجر.. وطبيعة ما هو مسموح به من دور.. وربما لهذا صرخ «أحمق اللهبي».. لقد عبثوا بأدواتي ولعبي.. كما سرقوا ما لم أكن قد رأته من كتبي.. وبالطبع فإن أحداً لم يقتنع بالأسباب.. خاصة بعد أن ارتفع صوت بدر شاكر السياب:

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معى أن يكون.. فكيف يمكن أن يكون

قبل أن يبدأ العرض كانت قد وجهت دعوات.. لمجموعات معروفة من الشخصيات.. وقد رفض كثيرون منهم الحضور.. لأنهم أدركوا أن المسرحية لا تعبر عن رأي الجمهور.. وهناك آخرون رفضوا مجرد تسلم الدعوة.. وقالوا الأفضل لنا أن نجلس على القهوة.. وصرح الشاعر الكبير معروف الرصافي.. بأنه يحب المشي على الشوك وهو حافي.. لأنه يعرف الكثير من الأسرار والخوافي.. أما محمد مهدي الجواهري فقد مزق البطاقة.. مؤكداً أن «دجلة» لا يحتاج مزيداً من الإعاقة.. بينما تساءل الجاحظ صاحب «البيان والتبيين».. من منكم يحترم عمل ممثلين.. جميعهم جاءوا بالتعيين؟

وقف المجنون خارج القاعة.. يواجه الشمس بصلعته اللماعة.. وهو يسأل أحد التعساء.. ممن يبيتون عادة في العراء:

★ أرجو أن تخبرني من فضلك.. ما عنوان هذه المسرحية؟

- هذه ليست مسرحية.. بل فبركة هزيلة هزلية.. عنوانها «أرانب الحرية».

★ العنوان جميل.. يبدو أن المؤلف عربي أصيل.

- بل العنوان رذيل.. أما المؤلف فهو أعجمي دخيل.

لم يشأ المجنون إطالة الجدال.. فانطلق هائماً ما بين حواري الحق وميدان الضلال.. وابتعد عن المبنى الذي تعرض فيه المسرحية.. بعد أن عرف أنها مضللة وهزلية.. ومن بعيد رأى معروف الرصافي.. يمشي على الشوك وهو حافي.. ويقول على لسان وحش أحمق.. أوقع نفسه في مأزق:

وحش يدندن والضحايا تنزفُ

ويقول بعد سقوطها: متأسفُ

ما كنت أقصد أن تفوح جرائمي

لكن طوفان الغريزة يجرف

مـا كنـت أنـوي أن أفـيض نذالـة
لكنـه الشـيطان حـين يزخـرف
كانـت فتـاتي بَعْـدَ بُعـدي وحـدها
وأنـا هنـا.. وظنـون لـيلى تسـرف
و«أبـو غريـبٍ» غابـةٌ وحشـيةٌ
وبكـل زاويـة دم لا ينشـف
فخلعـت إنسـانيتي ونسـيتها
وصعقت من بقيـود سـجن يرسـف
علقتـه عنـد الجـدار مجنـدلاً
والكهربـاء بجسـمه تتصـرف
جئنـا لنسـحق مـن طغـى ونذيقـه
ممـا أذاق.. فـنحن لا نتعسـف
سـترون كيـف تصـون كـل كرامـة
ومنـابع الإرهـاب كيـف تجفـف
وإذا اسـتحث «البنتجـون» جنـوده
«أتظـن أن هنـاك مـن يتخلـف؟»

obeikandl.com

٣٣

إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب لا يعني أنها بلا أنياب

اكتست ملامح الخروف بالحزن.. منذ أن أدرك أن أعضاء مجلس الأمن.. يحبون أكل لحم الضأن.. فاستغرق طويلاً في التفكير.. إلى أن استطاع التحول إلى خنزير.. ثم تحول ذات مرة إلى بقرة.. حتى لا يستطيع أحد أن يقتفي أثره.. وهكذا أصبح الخروف الداهية معبود الهندوس.. ولم يعد يهتم بتذكر حرب البسوس.. بقدر ما يخشى أن يكشف حقيقته جاسوس.. خصوصاً بعد أن رصد الشاعر محمد بن خليفة العطية.. مكافأة كبيرة سخية.. لكل من يضع النقاط على الحروف.. بشأن المكان الذي اختفى فيه هذا الخروف.

توصلت إدارة مخابرات الذئاب.. إلى معرفة كيف اختفى الخروف وغاب.. وأصبح كأنه «فص ملح وذاب».. لكنها لم تبح لأحد بالسر.. حتى تتمكن وحدها بالحيلة والمكر.. من أن توقعه في الأسر.. ولهذا جهزت له زنزانة سرية.. في مكان ما فوق سطح الكرة الأرضية.. لكنها ليست في «جوانتانامو» بكل تأكيد.. وليست في معتقل «أبو غريب» على وجه التحديد.. خصوصاً بعد أن بانت الفضائح.. وتحول ما كان عذباً إلى ماء مالح.. وهذا ما دفع المجنون لأن يصب وابلاً من الشتائم.. على أحد «أبطال» هذه الجرائم.. ممن كذبوا على الناس.. وأوهموهم أن قلوبهم مرهفة الإحساس.. وليسوا – كما يقال– عنهم من الأنذال والأنجاس.. ومن هنا جاءت صرخة المجنون.. في وجه الوحش الملعون:

مـزق وأحـرق مـن تـراه مقيـدا

وافخـر بجـرم أسـود لا يوصـف

وافـرح بصـورتك التـي تزهـو بهـا

فشـجاعة الجبنـاء طبـل أجـوف

مـا أنـت إلا دميـة دمويـة

يلهـو بهـا متألـه متعجـرف

مـا أنـت إلا كذبـة مفضـوحة

يعـلي حبـابرة بهـا مـا زيفـوا

أنـت التطـرف في رداء حضـارة

فـاخرس إذا وافـاك منـه تطـرف

كـم مـن ضـحايا أخمـدت أنفاسـهم

وبكذبـة التحريـر رحـت تخـرف

كـم مـن فتـاة حـرة سـيقتلكم

عـن ذكـر مـا كلـتم لهـا تتعفـف

فارحـل عـن الأرض التـي دنسـتها

فـالريح آتيـة بمـا لا تعـرف

حريـة الإنسـان ليسـت عظمـة

تلقـى لكلـب جـائع يسـتعطف

كان لابد أن تتظاهر الذئاب بالخجل.. حيث تجمع كبارها على عجل.. وأكد كل ذئب أنه على ما جرى يتأسف.. وأنه سيحاكم كل من كان يتعسف.. لكن الذئاب اكتشفت خلال اجتماعها السري المحدد.. في غابة البيت الأسود.. إنه لابد من تغيير أسلوب النهب.. حتى لا يغضب النهر العذب.. وهنا قال الذئب المتعجرف الخطير..

بشكل فجائي مثير:

★ صحيح أني وأنتم من أشرس الذئاب.. ولكن علينا أن نتذكر كيف يحيا الحروف الذي اختفى وغاب.. فلكي يظل حياً تحول مرة إلى خنزير.. ثم تحول إلى بقرة ليس لها نظير!

- ما هذا الذي تقول؟.. أتريد منا أن نأكل الحشائش في الحقول؟.. هذا شيء يدعو للذهول!

★ أنا لم أقل هذا أيها الذئب الخائب.. أنا أقصد أن نتعلم من أصدقائنا الثعالب.. ونستطيع في هذه الحالة أن نأتي بالعجائب!

- هذا أمر غامض مبهم.. ولهذا لم أفهم.

★ وأنا أقول لك أن الأمر غير معقد. فبعد خروجكم من غابة البيت الأسود.. سأتوجه وحدي إلى الصحفيين.. وأتحدث معهم بشكل رصين.. عما حققناه حتى الآن.. بشأن تجفيف منابع الفئران.. ثم أفاجئ الجميع بعرض إعلان!

- أي إعلان؟.. إني أوشك أن أجز على الأسنان!

★ اهدأ قليلاً يا أغبى ذئب.. أتظن أن مثلي له قلب؟.. إننا سنغير الأسلوب.. هذا هو المطلوب.. سيكون ما أعلنه هو «إعلان الذئاب.. عن تغيير الثياب».. وهذا لا يعني أننا سنخلع ما لنا من أنياب.. خصوصاً أننا ما زلنا نتصدى للإرهاب.. كل منا سيرتدي صوف خروف.. أما الفعل فسيظل كما هو مألوف.. وبدلاً من أن نوصف بأننا متوحشون أجانب.. ويأتينا اللوم من كل جانب.. فإننا سنصبح قوة متعددة للنهش.. وهذا ما سيطمئن قلب كل جحش!

obeikandl.com

٣٤

الليل تدحرجَ في الغابة .. والنور يعانقُ أحبابه

الأغصان تتمايل.. ومع كل نسمة تتفاعل.. والأمواج تتلاحق وتتواصل.. ولا يستطيع أحد أن يوقف حركة الحياة.. لكن كل غبي يتعثر في خطاه.. يتمنى أن يتجمد كل ما يراه.. حتى يتحقق له ما يرضاه.. وهذا ما جرى لحضرة الليل.. حين راح يفكر في حل.. يبقيه على قيد الحياة وحده.. ويبقي معه أعوانه وجنده.. لكي يحارب كل من يقف ضده.

اقتربت من الليل الخفافيش.. وظلت في أحضانه تنقلب وتطيش.. ثم استفزته بالقول: أين جبروتك أيها الليل.. إن رياح التغيير.. تطالبني بألا أطير.. كما تطالبني بألا أتعلق بالأغصان.. وألا أقترب من وجه أي إنسان.. وفضلاً عن هذا فإن هذه الرياح.. تحب أن تساعد سفينة الإصلاح.. وتدفعها إلى المزيد من الحركة.. بحجة أن الحركة بركة.. والآن أين جبروتك أيها الليل. ابحث لنا حالاً عن حل.

تعاطف الليل مع الخفافيش.. وأكد ضرورة عودة محاكم التفتيش.. واستمرار العمل بقوانين الطوارئ.. ومنع سفينة الإصلاح من الاقتراب من الشواطئ.. مع تجميد الحركة في الموانئ.. وأعلن الليل أن العدو الذي ينبغي أن يُقهر.. هو النور الذي يتجلى ويظهر.. لأنه يأتي من كل مكان.. وهذا ما يوقظ الإنسان.. ويجعل الينابيع تترقرق.. كما يتيح للأفكار أن تتدفق.. واستبدت بالليل حالة من الهياج والغضب.. بعد أن تذكر أن الناس في أرض العرب. يؤكدون أن موعدهم مع الشمس اقترب.

ظل أقارب أهل الكهف.. مرتجفين من إحساسهم بالبرد رغم حر الصيف.. وأصبحوا يخشون من لقاء أي ضيف.. وكلما سمعوا عن هبوب رياح التغيير.. أدخلوا من يفكرون في غرف التخدير.. ودفعوا الذين يعاندون.. إلى ظلمات المعتقلات والسجون.. وطلبوا من الليل أن يدهسهم.. أو أن يدوس على حناجرهم كي يخرسهم.

من ناحيته، حاول الليل تشويه العقول.. حتى لا تقول ما تريد أن تقول.. كما حاول إخافة كل سنبلة.. مهدداً إياها بحد المقصلة.. وتزاحمت حول الليل أسراب الخفافيش.. مؤكدة أنها لا تقبل التهميش.. ولابد لها أن تظل تعيش.. لكن العارفين ببواطن الأمور.. أدركوا أنه من المستحيل سجن النور. لأنه دائماً قادر على العبور.. فالنور يطل من أعلى جبل.. لكي يكشف الأمراض والعلل.. ويبين مواطن التصدع والخلل.. والنور في قلب كل إنسان.. يعرف أنه بالإمكان.. تحقيق أحسن مما كان.. والنور يفضح وجوه أهل الكهف.. ويفضح ما هم فيه من جهل ومن ضعف.

يتصور الخائفون.. أن أهل الكهف على كراسيهم يجلسون.. لكنهم في الحقيقة نائمون.. ولا يتصورون أن شظايا المآسي.. ستسقطهم من فوق الكراسي.. مهما حاولوا تقديم الرشاوي لليل.. لكي يحميهم من أن يسقطوا في الوحل.. ويبدو أن أهل الكهف لا يعرفون.. أن بحارة سفينة الإصلاح قادمون.. وأن الليل تدحرج في الغابة.. بعد أن فقد أنيابه.. خصوصاً بعد أن أدرك الناس في أرض العرب.. أن موعدهم مع الشمس اقترب.. فقد آن أن ترحل الكآبة.. لكي يعانق النور أحبابه.. حتى وإن ظل أهل الكهف.. يحاولون أن يطاردوه بغباء وعنف:

إنهم يسبكون الأكاذيب في كل صبح يجيء
حيث يغوون أفكارنا خلسة ثم يستأسدون
إنهم يُقبلون
من بعيد لكيْ يطردوا من هنا كل وجه بريء
إنهم يسكبون الزمان الرديء
فوق أحلامنا.. ثم يستبشرون
إنهم حين يخشون هول السقوط
يطلقون الضباب المراوغ في طرقات النهار
يجعلون الشوارع كالأخطبوط
يفرضون الحصار.. ولن يشربوا غير ذل وعار..

حسن توفيق – سيرة ومسيرة

• بينما كانت الحرب العالمية الثانية تحصد أرواح ملايين البشر ، كان هناك ملايين آخرون يولدون، ومن بين هؤلاء ولد طفل مصري ، اسمه كاملا حسن توفيق محمود محمد ، وقد ولد في أحد أحياء القاهرة الشعبية وهو حي شبرا يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٣ ، وفيما بعد – عندما كبر – أحس بالنشوة تغمر روحه حين اكتشف أن الشاعر الكبير الذي أعجب به أيما إعجاب وهو الدكتور إبراهيم ناجي كان قد ولد هو أيضا في حي شبرا ،لكنه ولد في آخر يوم من أيام القرن التاسع عشر الميلادي.

• في الخامسة من عمره شاهد الطفل بنفسه عمليات طلاء فوانيس الغاز المعلقة في الشوارع باللون الأزرق ، ثم أخذ يستمع كل صباح وهو في طريقه إلى المدرسة الابتدائية إلى أغنيتين كانتا تذاعان باستمرار، هما يا مجاهد في سبيل الله – جاه اليوم اللي بتتمناه بالعامية المصرية وأخي جاوز الظالمون المدى وهي بالفصحى ، وكانت الأغنية والقصيدة تغمرانه بالنشوة وبالحماسة وبنوع من الطرب التلقائي الذي يدفعه لمحاكاة ما سمعه في الأداء ، لكنه لم يكن يعرف أن الجيوش العربية قد خاضت في فلسطين حربا ضد العصابات الصهيونية وأن هذه الجيوش قد ذاقت مرارة الهزيمة القاسية .

• تلقى تعليمه الإعدادي في مدرسة السيدة حنيفة السلحدار الإعدادية بشبرا ، وفيما بعد عرف أن السيدة حنيفة كانت سيدة ثرية ولم يكن لها أبناء، ولهذا تبنت طفلة كانت مخطوفة من تركيا ، هي الشاعرة جليلة رضا ، وقد قرأ الطفل ديوانا كان قد صدر لتلك الشاعرة وهو اللحن الباكي كما قرأ عن طريق مكتبة المدرسة مجموعة كبيرة من كتب المغامرات والرحلات ، وكان متفوقا على كل زملائه في مادة اللغة العربية لكنه كان يرسب باستمرار في مادة الرياضة والحساب .

• تلقى تعليمه الثانوي في مدرسة روض الفرج الثانوية، وكان اسمها قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ مدرسة الأمير فاروق الأول ، وكان ممن تعلم على أيديهم خلال تلك المرحلة أستاذ اللغة العربية وهو الشاعر كمال نشأت – الدكتور فيما بعد ، وماهر ميخائيل أستاذ اللغة

الإنجليزية الذي أهداه مجموعة كبيرة من دواوين الشعراء الإنجليز من بينهم إليوت ووليم بتلر ييتس وأودن ولوي ماكنيس ، وذلك لتشجيعه في محاولاته غير الناجحة لكتابة قصائد باللغة الإنجليزية، أما مكتبة المدرسة فقد أتاحت له فرصة التعرف على رواد الشعر الحر من خلال مجلة الآداب البيروتية التي كانت تصل المكتبة بانتظام ، وهكذا حفظ حسن توفيق قصائد أنشودة المطر ومدينة بلا مطر وعرس في القرية لبدر شاكر السياب وقصائد أخرى عديدة لصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وخليل حاوي ونزار قباني ، كما حفظ عن ظهر قلب معظم قصائد ديوان وراء الغمام للدكتور إبراهيم ناجي ، وما يزال يعتز بالنسخة التي يقتنيها من هذا الديوان لأن ناجي كان قد كتب على صفحتها الأولى إهداء بخط يده لحضرة صاحب العزة عبدالحميد بك خضر مفتش وزارة المعارف العمومية – ٢٦ مايو ١٩٣٤.

• تلقى تعليمه الجامعي بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، حيث حصل على ليسانس الآداب في يونيو سنة ١٩٦٥ وخلال تلك المرحلة سعد برعاية وتشجيع أساتذته فيما يتعلق بفن الشعر ، ومن أساتذته الذين يدين لهم بالحب والولاء الدكتورة سهير القلماوي والدكاترة شوقي ضيف وشكري محمد عياد ويوسف خليف الذي كان شاعرا رومانسيا رقيقا وحسين نصار وعبد الحميد يونس وعبد المحسن طه بدر الذي كان يسمح لتلميذه بأن يزوره في بيته بالمعادي حيث تعرف على أدباء كثيرين ، منهم غالب هلسا وسليمان فياض ومحمد أبو المعاطي أبو النجا وعبد الجليل حسن ، وما تزال صداقاته مع أبناء دفعته ممتدة ووطيدة منذ سنة التخرج – ١٩٦٥ – حتى الآن ومنهم من أصبحوا مرموقين مثل الدكتور جابر عصفور والدكاترة يوسف حسين بكار وإبراهيم السعافين وأحمد أبو مطر والكاتب الناقد فتحي عبد الحافظ .

• بدأ يتعرف بشغف على عالم الصحافة عموما والصحافة الأدبية خصوصا وهو ما يزال طالبا جامعيا ، وهكذا توثقت صلاته بالكاتب الصحفي أحمد بهجت وأصبح يتردد على مبنى جريدة الأهرام القديم ، واستطاع أن يلتقي بصورة منتظمة مع الدكتور لويس عوض والفنان الشامل صلاح جاهين وشعراء العامية الذين كانوا يترددون على صلاح جاهين ومنهم عبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وعبد الرحيم منصور ،ومن خلال تواصله مع هؤلاء أخذ يكتشف الفارق بين ما يكتبونه من قصائد مرتبطة بالواقع وما يكتبه هو من القصائد الغارقة في رومانسيتها .

• كانت للطالب الجامعي وقتها جولات منتظمة لزيارة سور الأزبكية القديم حيث استطاع أن يقتني مجموعة كبيرة من أعداد مجلة أبولو ، فضلا عن الطبعات الأولى من دواوين شعراء تلك الجماعة ، ومنهم محمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصيرفي وصالح جودت وعلي محمود طه ، وخلال تلك الفترة تعرف على نجم أدبي شهير ما لبث أن أصبح صديقا حميما له وهو الكاتب والناقد رجاء النقاش .

• بعيدا عن أسوار الجامعة ، كان حسن توفيق من المشاركين في الأمسيات الشعرية الأسبوعية التي كانت الجمعية الأدبية المصرية تعقدها ، وكذلك شارك في العديد من الأمسيات التي كانت دار الأدباء تنظمها في مقرها بشارع القصر العيني ، وكان واحدا من الرواد الدائمين لمقهى ريش الشهير بشارع طلعت حرب حيث كان العملاق نجيب محفوظ يعقد ندوة أسبوعية مساء كل يوم جمعة ، وكان مرتادو تلك الندوة ممن كانوا يعرفون ب أدباء الستينيات ، ومن هؤلاء أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم أصلان وممن كانوا يقيمون في مصر وقتها الشاعران عبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري .

• بدأ ينشر قصائده منذ سنة ١٩٦٣ حيث نشر عددا منها في مجلة الشعر القاهرية التي كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط كما نشر في مجلة الآداب البيروتية، ثم أخذت قصائده تتوالى في النشر على صفحات مجلة المجلة بتشجيع من الكاتب الكبير يحيى حقي ومن بعده الدكتور عبد القادر القط الذي خلفه في رئاسة تحرير المجلة .

• سجل – بعد تخرجه في الجامعة – رسالة الماجستير سنة ١٩٦٦ لكن مغريات الساحة الثقافية والفنية التي انغمس فيها لم تمكنه من إنجازها إلا سنة ١٩٧٨ حيث حصل على الماجستير بتقدير ممتاز عن أطروحته : شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية ، وقد صدرت تلك الدراسة في بيروت خلال نفس تلك السنة ، واعتمد عليها باحثون أكاديميون في جامعات عربية عديدة ، وأعيد طبعها مرة ثانية في عمان ، كما أنها على وشك الصدور في طبعة جديدة ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة في مصر .

• عمل بعد تخرجه في الجامعة مديرا لمكتب الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور والذي كان وقتها مديرا عاما للنشر بالهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – الهيئة العامة للكتاب فيما بعد ، كما عمل محررا بمجلة الفكر المعاصر التي تناوب على رئاسة تحريرها الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور فؤاد زكريا وله كتابات نقدية

عديدة على صفحات تلك المجلة، وعمل لمدة سنتين في دار الكتب المصرية ،ثم عمل في الهيئة العامة للفنون حتى سنة ١٩٧٩ .

• اختاره رجاء النقاش ضمن من اختارهم للعمل معه في جريدة الراية القطرية منذ سنة ١٩٧٩ وهي الجريدة التي ظل يعمل بها رئيسا للقسم الثقافي طيلة ثلاثين سنة ، حيث عاد إلى وطنه مصر منذ يوم ٥ يوليو سنة ٢٠٠٩ ليتفرغ للكتابة الأدبية .

• حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر عن ديوانه انتظار الآتي سنة ١٩٩٠ بإجماع أعضاء لجنة التحكيم وهم الدكتور عبد القادر القط والدكتور يوسف خليف والدكتور محمود مكي والشاعر فاروق شوشة .

• حصل على جائزة أفضل قصيدة من مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة ١٩٩١ وذلك عن قصيدته السندباد والرحلة الجديدة التي كانت قد نشرت في الملحق الأدبي لجريدة الأهرام ، ثم اشتمل عليها فيما بعد ديوانه ليلى تعشق ليلى .

• أصدر أول ديوان له سنة ١٩٦٩ بعنوان الدم في الحدائق –انظر العطاء الأدبي للشاعر.

• أصدر كتابه النقدي الأول ضمن سلسلة المكتبة الثقافية بعنوان اتجاهات الشعر الحر سنة ١٩٧٠ وقد كان استقبال هذا الكتاب من جانب الساحة الأدبية استقبالا جميلا متحمسا .

• عضو الجمعية الأدبية المصرية منذ سنة ١٩٦٦ وقد رشحه لعضويتها كل من الدكتور عبد الغفار مكاوي وصلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد ، وخلال تلك المرحلة كان يساهم مساهمة فعالة في تحرير مجلة الأدب الشهرية التي كان يصدرها شيخ الأمناء أمين الخولي .

• عضو اتحاد كتاب مصر منذ بداية تأسيسه حتى الآن .

• ترجمت قصائد من شعره إلى اللغات الأسبانية والإنجليزية والروسية والأوكرانية ، حيث قامت المستعربة الأسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو بترجمة ونشر قصائد من ديوانه ما رآه السندباد في مدريد ، كما قام الدكتوران محمد شاهين –الأردن وعبد الواحد لؤلؤة – العراق بترجمة مجموعة من قصائده إلى الإنجليزية، وقام المستشرق الأوكراني البروفيسور فالير ريبالكن بترجمة مجموعة من قصائده إلى اللغتين الروسية والأوكرانية .

- زار العديد من الأقطار العربية للمشاركة في ملتقيات ومهرجانات أدبية وثقافية كما زار عدة دول أوربية للمشاركة في مشروع كتاب في جريدة الذي يصدر بالتعاون مع منظمة اليونسكو و كذلك للمشاركة في بعض دورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، وزار اليابان سنة ١٩٩٨ لمدة أسبوعين بدعوة من وزارة الخارجية اليابانية ، حيث سجل انطباعاته عن تلك الزيارة التي شملت طوكيو والعاصمة القديمة كيوتو وهيروشيما ونجازاكي ، فضلا عن لقاءاته مع أشهر الشعراء اليابانيين ، وقد تمت ترجمة تلك الانطباعات إلى اللغة اليابانية ، وله كتاب يصنف على أنه من كتب أدب الرحلات ، ويضم معظم ما كتبه عن تلك الزيارات والرحلات ، والكتاب بعنوان رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب .
- زار أوكرانيا تلبية لدعوة من جامعة عالم الشرق ، حيث ألقى محاضرة عن واقع الأدب العربي في قسم اللغة العربية بتلك الجامعة وذلك في شهر أبريل سنة ٢٠٠٦ وقد نشرت إحدى أشهر الجرائد اليومية الأوكرانية ترجمة لتلك المحاضرة شغلت مساحة صفحة كاملة .
- كتب أستاذه صلاح عبد الصبور مقدمة لديوانه الدم في الحدائق ، كما كتب الدكتور عز الدين إسماعيل دراسة عن شعره ، تصدرت ديوانه أحب أن أقول لا .
- كتب كثيرون من النقاد والشعراء والصحفيين عن شعره و من كتبه النثرية ، ومن هؤلاء الدكتور شكري محمد عياد – الدكتور يوسف حسين بكار – الدكتور كمال نشأت – الدكتور ماهر حسن فهمي – فاروق شوشة – الدكتور أحمد أبو مطر – علاء الديب – إقبال بركة – فاروق خورشيد – أنيس منصور – صالح جودت – الدكتور رياض عصمت ... وسواهم .
- اهتمت مواقع عديدة بنشر وإعادة نشر قصائده على الشبكة العنكبوتية – الإنترنت .
- له موقع رسمي على الإنترنت بعنوان : مجنون العرب – موقع الشاعر والكاتب حسن توفيق ، وله مدونتان شخصيتان إحداهما ضمن مدونات مكتوب والمدونة الثانية ضمن مدونات إيلاف .

- www.magnoonalarab.com
- magnoonalarab.maktoobblog.com
- hassan66.elaphblog.com

obeikandl.com

العطاء الأدبي للشاعر

أولا : الشعر :

(١) الدم في الحدائق – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ – الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩

(٢) أحب أن أقول لا – الطبعة الأولى سنة١٩٧١ الهيئة العامة للكتاب ، وقد صدرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٨٩

(٣) قصائد عاشقة – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩

(٤) حينما يصبح الحلم سيفا – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨ – دار النشر والإعلان – طرابلس – ليبيا وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٩

(٥) انتظار الآتي – سنة ١٩٨٩

(٦) قصة الطوفان من نوح إلى القرصان – ١٩٨٩

(٧) وجهها قصيدة لا تنتهي – سنة ١٩٨٩

(٨) ما رآه السندباد – سنة ١٩٩١

(٩) ليلى تعشق ليلى – سنة ١٩٩٦

(١٠) الأعمال الشعرية – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر ، أما الطبعة الثانية فقد صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢ وصدرت الطبعة الثالثة ضمن إصدارات مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣

(١١) عشقت اثنتين : توشكا وتمنراست – الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر

(١٢) بغداد خانتني – قصائد ومقامات في حب العراق – الطبعة الأولى ٢٠٠٤- مؤسسة الرحاب الحديثة - بيروت - لبنان

(١٣) وردة الإشراق – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥- المجلس الوطني للثقافة – الدوحة - قطر

(١٤) أحبك أيها الإنسان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨- الهيئة المصرية العامة للكتاب

(١٥) حلم يتفتح في صخر - قيد الطبع ضمن إصدارات وزارة الثقافة والفنون – الدوحة – قطر .

(١٦) لا مكان للشهداء – ضمن سلسلة الإبداع الشعري المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة .

ثانيا : فن المقامة :

(١) مجنون العرب بين رعد الغضب وليلي الطرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤- مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت - لبنان

(٢) ليلة القبض على مجنون العرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان ، وقد قام المترجم التونسي عبد الودود العمراني بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، والترجمة منشورة على شبكة الإنترنت – موقع جمعية المترجمين العرب

ثالثا : دراسات وتحقيق :

(١) اتجاهات الشعر الحر – سنة ١٩٧٠ – سلسلة المكتبة الثقافية

(٢) وداعا عبد الناصر – بالاشتراك مع أمل دنقل – سنة ١٩٧١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٣) إبراهيم ناجي – قصائد مجهولة – سنة ١٩٧٨ – مكتبة مدبولي – القاهرة

(٤) شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية – سنة ١٩٧٩ – المؤسسة العربية

للدراسات والنشر – بيروت – لبنان

(٥) أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب – سنة ١٩٨٠ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان

(٦) جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – سنة ١٩٩٦ – المكتبة العالمية – الدوحة – قطر

(٧) الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – سنة ١٩٩٦ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة

(٨) الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – مجلدان – سنة ٢٠٠١

(٩) مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين – الجزء الثالث – شعراء قطر – ٢٠٠١

(١٠) جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – طبعة موسعة – سنة ٢٠٠٢ – مؤسسة بيسان – بيروت – لبنان

(١١) الأعمال الشعرية المختارة للدكتور إبراهيم ناجي – سنة ٢٠٠٣ – المجلس الوطني للثقافة – الدوحة – قطر

(١٢) محمد بن خليفة العطية شاعرا وإنسانا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٤

(١٣) خليل الفزيع شاعرا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٦

(١٤) فاموس الأدب العربي الحديث – إعداد وتحرير الدكتور حمدي السكوت – (كتابة المواد المنشورة عن أدباء قطر) – سنة ٢٠٠٧ – دار الشروق – القاهرة

(١٥) الحياة الحب والحب الحياة – شعراء جبناء ونساء لهن عضلات – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة

(١٦) الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – طبعة جديدة منقحة – صدر المجلد الأول منها سنة ٢٠١١ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة .

(١٧) من شعر ناظم حكمت – ترجمة الدكتور علي سعد – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

(١٨) آلام فرتر لجوته – ترجمة أحمد حسن الزيات – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

رابعا : أدب الرحلات :

(١) رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر

(٢) رحلات جديدة مع الشعر والحب – قيد الصدور

خامسا : مقالات وقصائد منشورة :

هناك عشرات القصائد ومئات المقالات المنشورة في مجلات أدبية وثقافية مثل الهلال وإبداع وأدب ونقد في مصر والعربي الكويتية والدوحة القطرية والثقافة العربية الليبية والمجلة السعودية وغيرها، وفي العديد من الجرائد اليومية العربية ، ومنها الأهرام – الجمهورية – الأخبار – الخليج الإماراتية – القبس الكويتية – أخبار الخليج البحرينية – الوطن العمانية – العلم المغربية – الخبر الجزائرية – الشرق الأوسط السعودية . وهناك عمود أسبوعي ينشر في جريدة الشرق القطرية كل يوم خميس بعنوان مرايا الروح .

سادسا : فن الرواية :

(١) عرفة ينهض من قبره – رواية – تبدأ الرواية الأولى لحسن توفيق من حيث اختتم الكاتب الروائي العملاق نجيب محفوظ روايته الشهيرة أولاد حارتنا – الطبعة الأولى يناير سنة ٢٠١١ – وكان النص الكامل للرواية قد نشر في مجلة نزوى العمانية في العدد الثالث والستين الصدر في يونيو ٢٠١٠ – وقد كتبت عن هذه الرواية دراسات ومقالات عديدة بأقلام فاروق شوشة والدكتور أحمد أبو مطر وحنان بكير وعيسى الشيخ حسن وبيانكا ماضية واعتماد عبد العزيز وغيرهم، هذا إلى جانب لقاءات تليفزيونية عد حصصت لمناقشة الرواية .

(٢) زازا – رواية مجهولة للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي - جمع وتقديم – الطبعة الأولى سنة ٢٠١١ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت .

(٣) ثرثرة فوق الأنقاض – رواية جديدة تستوحي ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ وتتوغل أحداثها في زمن أبعد من زمن كتابة نجيب محفوظ لروايته الرائعة – لم تصدر بعد .

obeikandl.com